تطعيم الإلحاد

يتم تخصيص ٥% من جميع إصدارات دار ضاد لصالح مستشفي سرطان الأطفال ٥٧٣٥٧ ومركز مجدي يعقوب للقلب .

تطعيم الإلحاد

محمود زايد

تصميم الغلاف: محمد حواس

المراجعة اللغوية: أحمد عيد

الطبعة الأولى

تصنيف الكتاب:

رقم الإيداع:

ISBN: 978- 977- 6544- 84- 0

دار ضـــــــاد ©

الجيزة – اول الهرم ٩٧ ش ترعة الزمر بجوار مسجد نصر الدين

تليفون 0235708048 - 01120801780

Info@daadpub.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية

يعرض صاحبه للمساءلة القانونية

تطعيم الإلحاد

محمود زايد

مقدمة

"بســـم الله الرحمن الرحيم"، جملة تربينا على قولها، تعلمنا ها في بيوتنا ومدارسنا منذ الصغر، وتحولت إلى بداية للكثير من الأمور التي نقوم بها إن لم تكن كلها. لكن هل يتوقف الكثير منّا عند حقيقة ما تعنيه هذه الكلمة؟ هل نعلم من هو الله حقيقةً؟

عندما أطرح هذا السؤال لا أتكلم عن الله الذي تربينا على وجوده واعتبرنا أنه موجود على سـبيل التسـليم، بل أعني الله الذي قمت برحلة بحث مسـتخدمًا العقل الذي أملك حتى أحاولَ التأكد من وجوده أو عدمه، هل من الممكن أن يقوم عقل الإنسان بمساعدته للتوصل إلى حقيقة وجود الإله من دون مساعدة، أي دون اللجوء للكتب الســـماوية، أم أن معرفة وجود الله شيء محال على العقل؟ هل من حق الإنســـان أن يتشـــكك في وجود الله ويســـأل غيره منْ مَنْ حوله بدون أن ينهروه أو يهاجموه؟ إن ما دفعني للقيام بهذا العمل المتواضع أن أحاولَ جاهدًا مســـاعدة الكثيرين ممن فقدوا إيمانهم بأي دين، بل كذلك فقـدوا اعتقـادهم بوجود إلـه بغض النظر عن انتماءاتهم الـدينيـة، وأغلبهم يخافون الكلام في هذه الأفكار مع أي أحد خوفًا من الهجوم عليهم لأننا في مجتمع لا يقبل الاختلاف، بل ويحاربه بشـــدة، فاتخذ هؤلاء من الصـــمت والانعزال حلًا لمشـــاكلهم، والذي بدوره يولّد عندهم من المشـــكلات النفســـية التي تجعلهم ينقمون على المجتمع الـذي تخلى عنهم. قـد لا يكون هـذا الموضـــوع مهمًا للبعض لأنه لم يمر باختبار في دينه أو عقيدته، لكن اســـألوا أي متشـــكك عن مدى أهمية الدين بالنســـبة له ومدى الألم الذي يمر به دون أن يـشعرَ بهَ أحد. إن الدين هو أغلى ما يملك الإنسان في حياته، فهو بمثابة الوعد الإلهي بما هو بعد الموت، هذا الوعد يشـكل بالنسـبة للمؤمن الراحة النفسـية التي من الممكن أن يتقبل بها الصعوبات والابتلاءات التي يمر بها في فترة حياته

في الدنيا. تخيل كيف تكون حياتك لو فقدت اعتقادك بوجود إله؟ لن يقبل أحد ما عنده، الفقير لن يرضى بفقره، المريض لن يتحمل مرضه، الكل سيعيش كارهًا لما حوله، هذا الوعد بالحياة الأبدية هو كل ما ينتظره المؤمنون بوجود الإله، وهو ما يجعلنا أكثر تسامحًا مع بعضنا البعض، يجب أن أنوه إلى أنه في تجربتي مع العديد ليس كل من يدعي التشكك في الله صادق في ما يدعيه، فهناك من يحب الشهرة، وهناك من لا يحب فكرة أن يعيش بقانون أو نظام ما مدعيًا أن كسر هذه الأمور من الحرية، وهناك من لديه مشكلة في حياته الاجتماعية أو المادية أو الصحية فيجعل بينه وبين الله خصومة لأنه دون غيره ابتُلِيَ بذلك، كل هذه الأصناف السابقة ليست هدفًا لكتابتي لأنهم لا يستخدمون العقل ومشكلتهم نفسية أكثر من كونها فكرية، هدفي هو الشخص الصادق مع نفسه، الذي لديه أسئلة بلا أجوبة؛ سأحاول طرح بعض الأسئلة التي أثيرت من خلال لقاءاتي مع البعض وأقوم بالإجابة عنها بما أراه صحيحًا من وجهة نظري، ولن أطيل حتى لا أكون مملًا. ويجب التنويه على أن هذا ليس كتابًا دينيًا بالمعنى المتعارف عليه، هو عمل علمي فلسفي بحت، لا يتعارض مع أي معتقد ديني أيًا ما يكون.

نظرية ديكارت

يعتبر رينيه ديكارت من أوائل الفلاسفة القدماء الذين استطاعوا إيجاد طريقة للتوصل إلى وجود الإله، بدأت المسألة رغبة منه لمساعدة الكنيسة والقساوسة في الإجابة عن أسئلة المتشككين في وجود الله. فعندما يسأل المتشكك القسيس، كيف تعلم أن الله موجود؟ كان القس يجيب أن الله موجود لأن هذا الأمر مذكور في الإنجيل. ثم يسأل المتشكك، كيف تعرف أن الإنجيل صحيح؟ فيجيب القس، لأنه من عند الله، هنا تكمن مشكلة، وهي أنه عند الإجابة عن سؤال لا يصح الاستشهاد بالإجابة لإثبات صحة السؤال. وهذا ما يعرف علميا بالدائرة المغلقة، ومن هذه النقطة قرر ديكارت أن يساعد الناس للوصول إلى وجود الله بتجرد تام بعيدًا عن أي كتب سماوية، كانت البداية أنه قرر عدم الاعتماد على الحواس الخمس في بحثه، لأن الحواس الإنسانية قد تخدع الإنسان

في بعض الأحيان. فمثلًا عندما نضع ملعقة في كوب ماء، يبدو للناظر أن الملعقة مكسورة بسبب ظاهرة انكسار الضوء، وهذا يعد خداعًا بصريًا، إذن لا يمكن التأكد من صحة النتائج التي نصل إليها بحواسنا فيما هو مجهول، لأن هذه النتائج قد تكون غير دقيقة، وقرر ديكارت كذلك ألا يستشهد بالأشياء التي حوله بما في ذلك نفسه، لأن كل هذه الأشياء محتمل أن لا تكون حقيقية، فعندما نحلم ونحن نائمون نظن أن كل ما نراه في الحلم من أشخاص وأشياء وأحداث حقيقية، لكنها في حقيقة الأمر وهمٌ وجزء من الحلم، فكان افتراضه، ماذا لو كانت حياتنا هذه حلم ونحن غير مدركين، وبالتالي كل ما حولنا ليس حقيقيًا، إذن لن يكون مجديًا الاستدلال بما حولنا مفترضين أنها مخلوقات تشير إلى وجود خالق، الشيء الوحيد الذي توصل إليه أنه يفكر في كل هذه الأمور السابقة، وبما أنه يفكر إذن هذا دليل على أنه موجود، وهذه هي العبارة الشهيرة المنسوبة إليه" أنا أفكر إذن أنا موجود"، من هذا المنطلق أثبت أنه موجود. لكن الملاحظ أيضا وجود فكرة أخرى في عقله وهي فكرة الكمال، لكنها منقوصة في داخله وليست كاملة، فنجد أن طبيعة الإنسان هي الرغبة في القيام بالأشياء على أكمل وجه، الطالب يريد ألا يخطئ، سائق السيارة لا يريد أن يصدم سيارته، الطبيب لا يريد أن يخطئ في تشخيص المرض، هذه الفكرة الغريزية هي فكرة الكمال، لكن الكل في النهاية لابد أن يخطئ، مما يجعل هذا الكمال منقوصًا، وبما أن فكرة الكمال فينا ناقصة، إذن نحن لسنا مصدر هذه الفكرة وأن هناك مصدرًا ما لهذه الفكرة، وهذا المصدر يمتلك الكمال المطلق ويُعتبر فاعلًا، وهو الذي زرع فينا فكرة الكمال، لأنه لو كنا مصدر فكرة الكمال لكان مطلقًا وكاملًا فينا، أي استحالة أن نخطئ ولهذا نحن مفعول بنا، وفقًا لنظرية الفاعل والمفعول به، دومًا يمتلك الفاعل القدرة الأكبر ويقوم بالتأثير بها على المفعول به فيكسبه جزءًا من تلك القدرة، فمثلا عندما يقوم شخص بتوجيه ركلة لكرة، فإنه يعطيها جزءًا من الطاقة التي في جسمه، مهما بلغت قوة هذه الركلة، فتكون الطاقة التي اكتسبتها الكرة منقوصة مقارنة بالمصدر الذي يمتلك الطاقة الأكبر، هذا الفاعل الذي وضع فكرة الكمال داخلنا، هو ما وصفه ديكارت بالخالق؛ إذن من هذا يمكن الاستدلال على وجود خالق، أيضًا وجد ديكارت أن عقله به أفكار أخرى مثل فكرة الخوف، الغضب، الحزن،

الفرح، وأن مصـــدر هذه الأفكار هو التجربة الحياتية مع ما حولنا من بشرـــ وحيوانات وكل المخلوقات، وهي التي شـكلت وجداننا ومشـاعرنا، وهذا دليل على أن ما حولنا وما يؤثر فينا هو بالفعل موجود، إذن هناك مخلوقات وهناك خالق لها، وهذه حقيقة حتمية لا مجال لإنكارها.

وتعتبر نظرية ديكارت أفضل محاولة قام بها إنسان لإثبات الوجود الإلهي بتجرد عن أي كتب سماوية، فكان له فضلٌ كبيرٌ للرد على المتشككين في وجود الله.

الفصل الأول

مسألة وجود الله والعلم

هل نحن أفضل من الله؟

لو كنا نعلم أن هجوم الحادي عشر من سبتمبر الإرهابي سيحدث، لكنا أوقفناه قبل وقوعه، لكن الله لم يوقف هذا الهجوم، وهذا يطرح سؤالا، هل الله موجود؟ وهل كان على علم بهذا الهجوم؟ وإن كان يعلم، هل كان قادراً على إيقاف هذه الجريمة؟ أي إنسان لو علم بوقوع أي جريمة أو حادث لتدخَل فوراً لإيقاف أي خطر سيقع، الإجابة هي أننا في هذه الحياة نعيش في اختبار نملك فيه قرارنا واختيارنا أن نفعل الصواب أو الخطأ، فلو تدخل الله دوماً لتصحيح أخطائنا قبل وقوعها لما كان هناك جريمة أو اعتداء في هذه الدنيا، ولن يكون للحساب يوم القيامة أي فائدة ولن يكون هناك جدوى من وجود جنة لمكافأة المحسنين أو نار لمعاقبة المجرمين، لأن الكل ببساطة لن يوضع في اختبار أثناء الحياة الدنيا.

هل نحن وُجِدْنا بالصدفة؟

يصل التعقيد في تكويننا لدرجة أنه لو تم مد شريط الـ DNA الذي يحمل صفاتنا الوراثية سيصل طوله إلى مسافة تعادل المسافة بيننا وبين الشمس ستة وستين مرة، وعلى امتداد هذا الشريط يوجد شفرة تحدد صفات كل إنسان وتميزه دون غيره، وحدوث أي خلل بسيط في هذه الشفرة يؤدي إلى خلل في تكوين الإنسان، وبالتالي يصاب بنوع من الإعاقة الذهنية أو الجسدية، ومن هنا نستطيع أن نتوصل إلى استحالة خلق كل ما هو حي عن طريق الصدفة أو من العدم، فلا بد أن يكون هناك قوة ما قامت بهذه الصناعة المتطورة، وأن هذه القوة تتفوق على ما تصنعه، وأنها منظمة وغير عشوائية.

نعلم جميعا أن الخير من الله، ولكن هل الشر من الله؟

يتساءل الكثيرون، بما أن الله يخلق كل شيء، وبما أنه يحبنا، فلماذا يخلق الله الشر ليكون سببًا في الشقاء الذي نحن فيه؟ ومما هو معروف أن كل من يسلك سلوكًا شريرًا يوصف بالشرير، فهل الله يكون خيرًا في أحيان وشريرًا في أحيان

أخرى؟ أم أن الله يخلق الخير والشيطان يخلق الشر؟ في الحالة الأولى، كيف يكون مصدر الخير هو نفس مصدر الشر؟ وفي الحالة الثانية يتبادل الخالقين النصر والهزيمة، وهذا يعني وجود إلهين يتنافسان على اتباعهما، لكي نفهم تفسير هذا الأمر نستدل بظاهرة علمية حولنا وهي الضوء، فلو سألنا أي طالب عن سبب رؤيتنا لما حولنا، ستكون الإجابة هي أن انعكاس الضوء من على أي سطح يؤدي إلى رؤيته. وعندما لا نرى حولنا أي شيء فإن هذا هو ما يعرف بالظلام والذي هو غياب الضوء، فهل هناك مخلوقان أحدهما هو الضوء والآخر هو الظلام؟ بالطبع ليس هناك إلا الضوء فقط، أما الظلام فهو غياب الضوء. كذلك الخير والشر. الشر هو غياب الخير. المكان الذي يختفي فيه الخير يظهر فيه الشر، وهذا شيء منطقي ألا يكون الخير كاملًا فينا كبشر، وإلا لما كان هناك داعٍ لأن نموت لكي يتم حسابنا على أعمالنا، فلو كان الخير كاملا فينا والشر يساوي صفرا، لكانت مسألة الموت والبعث للحساب مسألة عبثية، ولهذا نستطيع أن نقول أن الله قد خلق الخير فقط، وأن الشر هو غياب الخير.

هل الله كامل؟ وهل هو عادل؟

إذا كان الله كذلك، فلماذا يخلق بعض الناس بأمراض وإعاقات، ولماذا يمرض البعض دون آخرين في مرحلة ما في عمرهم؟

من المؤكد أن الموت بحد ذاته تجربة مرتبطة بنا كبشر، بغض النظر عن توقيت حدوث الموت فهذا لا يعتبر العنصر الأساسي لأنه يحدث للكل، لكن الذي يؤخذ في الاعتبار هو سبب الوفاة، من مرض أو قتل أو أسباب طبيعية، وهذا هو الدافع للسؤال المطروح، أين عدالة الله في اختيار المرض للبعض أو الصحة للبعض الآخر؟ وعلى نفس المفهوم يمكن السؤال لماذا يكون البعض غنيا والآخر فقيراً؟ الإجابة هي أنه مهما طالت الصحة أو المرض أو الغنى أو الفقر، فهي فترة مؤقتة تنتهي بنهاية الحياة، وهذه المواصفات التي نملكها في الدنيا سواء كانت إيجابية أوسلبية هي جزء من برنامج اختباري نحن موضوعون فيه، يؤدي بنا إلى حياة أخرى مستديمة يقرر مواصفاتها أداؤنا في فترة الاختبار.

إن مبدأ الاختبار للكل يطرح سؤالًا آخر، لماذا لا يكون الاختبار موحدًا للجميع، فتكون العدالة الإلهية على الجميع بدون تفاوت؟ فعلى سبيل المثال، أن يصاب الكل بنفس نوع السرطان في نفس الجزء من الجسم وفي نفس المرحلة العمرية، بحيث يموت الجميع في نفس السن. ألا يجعل هذا الأمرَ اللهَ يبدو عادلًا مع الكل؟ لو قبِلنا بهذه الفرضية سنجد أنفسنا أمام مشكلة جديدة وهي أن المثال المستخدم في الأعلى وهو السرطان سيصبح جزءًا طبيعيًا من مراحل حياة الإنسان، ولن يكون مرضًا أو اختبارًا يمر به الإنسان لأن الكل يمر به كنمو الشعر أو الأظافر أو غيره من الظواهر البيولوجية الإنسانية، وهذا يوضح بجلاء سبب تباين الاختبارات لكل إنسان على حدة، وأن العدالة الإلهية لا تنتقص من مثل هذا.

نظرية التطور

يقول المؤمنون بنظرية التطور أن كل ما هو موجود حولنا من مخلوقات، بما فيها نحن، قد وجدت بفعل الطبيعة وعواملها المؤثرة، وأن التدخل الإلهي لا دليل عليه، لو قمنا بالنظر إلى النظام الخلقي الموجود حولنا لوجدنا أنه متكرر ومتوقع، فمثلًا لو نظرنا إلى أثر الرياح في الرمال، سنجد أنها تصنع تموجات على سطح الرمال، وكل مرة تصطدم الرياح بالرمال تحدث نفس الظاهرة، إذن فعل الرياح في الرمال متكرر ومتوقع، فلو مررنا في يوم ما برمال ورأينا مكتوب عليها "أحمد ذهب إلى السوق"، بديهيًا سوف نعلم أن الرياح لم تقم بهذا الفعل وأن شخصًا ما قام بهذا العمل، وكذلك إذا وجدنا هاتفًا محمولًا ملقىً في وسط الصحراء، وقام أحد بتفسير وجوده بأن السيليكون الموجود في الرمال كوّن الدوائر الإلكترونية داخل الهاتف، وأن البلاستيك المصنوع منه الهاتف جاء من البترول الموجود في باطن الأرض، وأن البرق والأشعة الكونية عملت كعامل مساعد لدمج كل هذه المكونات في ظروف قياسية معينة ساهمت في خلق هذا الهاتف المحمول، فإن هذا الرأي سيعتبر غاية في السطحية واللامنطقية، كذلك يُنظر إلى كل الموجودات حولنا بما فيها نحن، إذن من الصعب قبول فكرة أن الطبيعة قادرة على إيجاد شيء جديد أو غير متوقع لأنها تخضع للمعادلة التي تفرض عليها النتائج، ولإيجاد شيء جديد لم يكن موجودًا من قبل يجب تدخل

قوى مختلفة تستطيع ألا تكرر نفسها وأن تأتي بما هو غير متوقع، وهذه القوى ليست خاضعة لمعادلة، بل هي قادرة على إيجاد المعادلات التي تجبر ما تخلقه عليها، هذه القوى هي ما تعرف بالإله.

ليس من الضرورة أن يكون جهلنا بالأشياء التي حولنا هو عدم وجودها

هناك الكثير من الظواهر والنظريات التي يتم اكتشافها على مر العصور، ليس معنى أنها اكتشفت في وقت ما أنها لم تكن موجودة من قبل. على سبيل المثال، الموجات الكهرومغناطيسية تشكل ثورة في عالم الاتصالات، وقد أدى اكتشافها إلى ظهور الهاتف المحمول، والأقمار الصناعية، والراديو، وبدون هذا الاكتشاف لم يكن من الممكن أن نشاهد التلفزيون، فلو رجعنا فقط قبل مائة عام وقلنا لشخص ما أنه لو قام بالضغط على زر في صندوق سوف يستطيع أن يشاهد مباراة لكرة القدم في بلد آخر، سيظن أننا نستهزئ به لأنه أمر يعد من الجنون، فهل جهل هذا الإنسان بوجود الموجات الكهرومغناطيسية يعني أنها لم تكن موجودة قبل اكتشافها؟ بنفس المنطق تمامًا ليس من الإنصاف نفي وجود خالق لما حولنا، ومن هذا المنطلق نقول أنه إذا كان التلفزيون والراديو والأقمار الصناعية من مخلوقات الموجات الكهرومغناطيسية، فماذا عن كل ما حولنا من أشياء بما في ذلك الموجات الكهرومغناطيسية؟ ومن هو المسؤول عن وجودها؟ إنه ما يمكن وصفه بالإله، وهو أبسط حل لتفسير وجود كل ما هو موجود، وإلا فمن الواجب أن يكون النافي للوجود الإلهي منصفًا بأن يعطي تفسيرًا للظواهر الموجودة حولنا.

مسيّر أم مخيّر؟

لو كان في علم الله المسبق أننا سندخل الجنة أو النار، فلماذا يجعلنا نعاني في هذه الحياة ويعطينا الأمل لسنوات طويلة من الزمن لشيء محسوم مسبقًا في

علمه؟ وإذا كان خالقنا وهو لا يعلم مصيرنا، فكيف يكون عالمًا للغيب وما سيكون؟ هذا الأمر هو أساس مسألة جدلية لطالما شغلت عقول الناس على مر العصور، وقد تمثلت في سؤال، هل الإنسان مسير أم مخير؟ لو كان مسيراً، فلماذا نخلق في الدنيا لنعاني وفي النهاية سندخل جهنم. ولو كان مخيراً، فهذا يعني أن الله لا يعلم ما سيحدث لنا في نهاية المطاف، وهذا ينتقص من صفات الله. أرى أن هذا الأمر يصعب شرحه لأنه يدخل في أمور مبنية على التكهن، لكن دومًا إعطاء الأمثلة الجيدة يقرب التصور لمثل هذه المسألة. المدرس في فصله يكون قريبًا جدًا من تلاميذه، فهو يتابع أداءهم الدراسي، فلو سألناه عن تلاميذه سيجيب أن أحمد سينجح بتفوق، وأميرة ستنجح بصعوبة، أما خالد فسوف يرسب. كما نرى، هو يستطيع إخبارنا بما سيحدث لطلبته دون أن يكون إلهًا، وذلك بمدى التزام طلبته بعملهم، فماذا عن الخالق؟ أليس قادراً على أن يكون أكثر دقة من المدرس مع تلاميذه الذين هم مخيرون في دراستهم من عدمها؟ وهو الشيء الذي يبدو للشخص الناظر إلى خيارات الطلبة، لكن لنفس الشخص عندما ينظر لكلام المدرس عن تلاميذه، يبدو إليه أنهم مسيرون، كذلك عندما نشعر بالجوع نصبح مسيرين في رغبتنا للأكل، لكننا مخيرين في نوع الطعام الذي نختاره، وعندما نفتح أعيننا نصبح مسيرين في أن نرى، لكننا مخيرين في ما ننظر إليه، كما نرى التسيير والتخيير مختلطين تماما ببعض ويعملان معًا بتكامل تام.

تعالوا لنقوم بدمج مجموعة من العوامل التي نسيّر ونخيّر فيها لنعطي مثلًا أكثر تعقيدًا، عندما نقود السيارة في الطريق، نكون مسيرين أن نرى، لكننا نختار أن ننظر إلى الأمام أو في المرآة أو حتى في الهاتف، وكل اختيار يترتب عليه نتائج مختلفة، كذلك نحن مسيرون أن نمشي في اتجاه الطريق لكننا نختار السرعة التي نسير بها، نختار أن نتوقف، نختار أن نسير عكس الاتجاه، وكل من هذه الخيارات يترتب عليه نتائج مختلفة، لكن دعونا نبحث عن العوامل الأخرى التي قد تتدخل خارجيًا بعيدًا عن إرادتنا، كأن تنقلب سيارة أمامنا، أو أن يقفز طفل إلى منتصف الطريق، أو يدخل مسمار في الإطار، هذه عوامل خارجية ليست مرتبطة بما نحن فيه مسيرون أو مخيرون، إن هذه العوامل هي ما يعرف بالقدر والمشيئة الإلهية والقضاء. فالمشيئة هي انقلاب السيارة، أو قفز الطفل في منتصف الطريق، أو دخول المسمار في إطار السيارة، وهي أمر ثابت لابد من حدوثه ولا

يتغير، أما القدر فهو مدى وجودنا في دائرة المشيئة، أي مدى قربنا أو بعدنا عن السيارة المنقلبة، أو الطفل في الطريق، أو أثر المسمار في الإطار. القدر شيء متغير تحدده علاقتنا بالخالق ومخلوقاته. المزيج بين المشيئة الإلهية والقدر هو ما يسمى بالقضاء، أي انقلاب سيارة على سيارتنا من عدمه، أو الاصطدام بالطفل من عدمه، أو انفجار الإطار من عدمه. لكن هل من الممكن أن نتلاعب في أحد هذه العوامل أو بعض منها؟ وماذا سيترتب على ذلك؟ نعلم أن لكل إنسان حواس خمسة، وعندما يفقد أحدها تزداد الحواس الأخرى، فمثلا نجد أن حواس الرجل الأعمى الأخرى أفضل منها عند الشخص المبصر. وكذلك كما هو الحال في الحواس يكون الحال في التسيير والتخيير والمشيئة والقدر والقضاء. عندما يختار قائد السيارة أن يغلق عينه وهو يتحرك، هو يعطل كذلك قدرته على الرؤية التي هو مسير فيها، وبهذه الخطوة قد عطل التسيير باختياره ورفع من احتمالات القدر وبالتالي القضاء، فنجد أنه أصبح معرضًا أكثر للحوادث من الشخص الذي يستخدم بصره، في النهاية نصل إلى أن السؤال الأزلي هل الإنسان مسير أم مخير، سؤال ناقص، يلزم سائله إدراك المعاملات الأخرى المتداخلة مع هذين العنصرين.

المغفرة المطلقة والعدالة المطلقة

من المعلوم أن الله يمتلك الكمال في كل صفاته، لذلك هو يمتلك القيمة المطلقة لكل شيء وأي صفة وأي قدرة يملكها، فإذا كان يمتلك المغفرة المطلقة أي الكاملة، فهذا يعني أنه قادر على أن يغفر لأي أحد، وكذلك هو يمتلك العدالة المطلقة أي الكاملة، فهذا يعني أنه سوف يحاسب الجميع على كل خطيئة يرتكبونها سواء كانت كبيرة أو صغيرة، فكيف له أن يجمع بين الصفتين معًا؟ فإما أن يكون غفوراً، فيسامح الكل، وإما يكون عادلًا، فيحاسب الكل. يجب علينا أن ندرك ونحن ننقد الإله أننا نتعامل مع ما هو أكثر تطوراً وتعقيدًا منا، وهذا لا يمكّننا من إدراك الكثير من قدراته وكيفية تطبيقها، فنحن كبشر نملك صفات المغفرة والعدالة، فنحن نستطيع أن نغفر لأحد خطأً ما، أو أن نحاسبه على هذا الخطأ، لكن من المستحيل أن نغفر ونحاسب الشخص على نفس الخطأ في نفس الوقت،

وهو غير منطقي بالنسبة لقدراتنا العقليَة، تمامًا كما كنا في طفولتنا، كنا نرى أبوينا يقومان بأفعال تبدو لنا غير مفهومة ولم نكن نتصور أننا نستطيع القيام بها إلا أنه عندما كبرنا أصبح ما لم يكن فهمه أو فعله في الماضي غايةً في السهولة، وكذلك لفهم كيف يجمع الله بين صفاته في نفس الوقت، يجب أن نمتلك قدرة أعلى من إمكانياتنا كبشر، وهذا ليس متاحًا.

رؤية الله

لماذا لا يظهر لنا الله أو يكلمنا أو يعطينا علامة واضحة لا تحتمل التأويل حتى نؤمن به بدلًا من أن نُترك في حالة الشك والظن؟ الإجابة على هذا السؤال تتطلب منا تعريف الإيمان، لأن الإيمان هو الذي يترتب عليه سلوك الإنسان المؤمن بعقيدة ما وذلك لتأكده من صحة مصدر هذه العقيدة وهي الإله. إذن يمكن تعريف الإيمان بأنه الاعتقاد الغيبي بوجود إله، مما يلزم الإنسان المؤمن بالامتثال لهذا الإله وطاعته في كل أوامره قدر المستطاع. وأن درجة الإيمان تقاس بقدر الاعتقاد الغيبي بهذا الإله الذي لم يرَه أحد بشكل مباشر، فكلما زاد اليقين بوجود الله زاد معه الإيمان، والذي بدوره ينعكس على مدى استجابة المؤمن لأوامر الله، ومن هذه النقطة نستطيع أن نصل إلى حقيقة وهي أن ظهور الإله للإنسان بأي شكل أو أي طريقة، ينسف نظرية الإيمان، لأن مسألة وجود الخالق لم تعد غيبية بسبب ظهوره بشكل جلي لكل مخلوقاته، ولا يكون إيمانًا دون التعلق بما هو غيبي، لكن ماذا لو جدلا أراد الله أن يظهر نفسه لنا؟ هل سنستطيع أن نراه؟ من الخطأ الظن أن البصر والحواس الإنسانية قادرة على إدراك كل ما حولنا، فنحن لا نستطيع رؤية الموجات الكهرومغناطيسية الموجودة حولنا إلا بأجهزة مساعدة، ولا نستطيع رؤية البكتيريا والفيروسات إلا بأجهزة أخرى مساعدة، فإذا كان هذا حالنا مع ما حولنا من مخلوقات، فكيف يكون حالنا مع الخالق، حتى المخلوقات حولنا كان من الممكن أن لا نراها أو ندركها بأي وسيلة لو لم تكن بكيفية معينة. فمعرفتنا بالنهار بسبب وجود الليل، فلو كان طول اليوم نهار فقط لما كان للفظ النهار وجود. كذلك الذكر والأنثى، لو كان كل الموجود ذكرًا فقط لما وجد لفظ ذكر، والعديد من الأمثلة لما حولنا،

لكن الشيء الوحيد الذي ليس له قرين أو نظير أو ضد هو الله الواحد، وبالتالي يكون مستحيلًا أن نراه حتى لو ظهر لنا.

لماذا خلقنا الله؟

إن في الخلق دلالة على ادعاء الخالق لقدرته على الخلق، فكيف يكون خالقًا بلا مخلوقات، فلو ادعى شخص بقدرته على الخلق، سيكون السؤال المطروح، أين هي مخلوقاتك؟ فإن لم يستطع إيجادها أو على الأقل إثبات وجودها، يسقط عنه ادعاؤه الخلق.

إذا نحن مخلوقون وسائر الكون لأن هناك خالق أثبت قدرته بخلقنا، وهذا الخالق يمتلك قدرة غير محدودة على الإبداع والتنوع، فنجد أنه خلق ملايين المخلوقات المختلفة، وكل نوع له صفات تميزه عن أمثاله من ذات النوع. فنحن وكل ما حولنا دليل على صحة ادعاء الخالق بقدرته على الخلق، وتنوعنا دليل على إبداع قدرته تلك.

هل من الممكن رؤية الخالق؟

عندما تقوم برسم شخص على ورقة، مهما كنت بارعًا في الرسم ستكون هذه الصورة في بعدين فقط، طولًا وعرضًا، أي أن لها مساحة وليس لها حجم وذلك لأنها تنتمي إلى بعدين، أما نحن فنقع في عالم ثلاثي الأبعاد طولًا وعرضًا وعمقًا، أي أن لنا حجم بالمقارنة بين البعد الثنائي والبعد الثلاثي، نجد أن الأخير أكثر تعقيدًا وتطورًا، ونجد أن الشخص في البعد الثنائي أقل بكثير من الشخص في البعد الثلاثي.

في الفيزياء والرياضيات تتغير القوانين والحسابات والمعادلات لكل من البعدين، فمثلاً في البعد الثنائي تكون وحدة المساحة هي التربيع، وفي البعد الثلاثي وحدة الحجم تكون التكعيب، وليس للبعد الثنائي حجمًا لكن للبعد الثلاثي حجمًا وكذلك مساحة للأسطح. وبالتالي يكون مستحيلاً أن نكون في البعد الثنائي

ونستطيع أن نتعامل مع أو نرى أي شيء في البعد الثلاثي، فمن في البعد الثلاثي يقدر على أن يرى من في البعد الثنائي، لكن العكس غير صحيح، فكيف إذا من الممكن لأي منصف أن يطالبنا ونحن ننتمي للبعد الثلاثي أن نرى خالقنا الذي هو أكثر تطوراً منا وليس في نفس بعدنا؟ بل في بعد آخر لا نعلم عنه شيئًا؟ وحتى البعد الرابع الذي تحدث عنه ألبرت آينشتاين في النظرية النسبية، والذي يمثل الزمن والمكان، والمعروف بالزمكان، هذا البعد يشكل تصوراً نظرياً قام به آينشتاين، مبينًا إمكانية السفر عبر الزمن للماضي أو المستقبل في حالة قدرتنا على الوصول إلى سرعة الضوء. وبالطبع هذا كله نظري ولا تؤيده غير الفيزياء النظرية، ويبتعد عن الواقع تماماً.

السؤال يعيد نفسه مرة أخرى، إذا لم نستطع الوصول إلى عالم الزمكان، فكيف يكون منصفًا أن يطالب أحد برؤية الخالق الذي لا يمكن كذلك أن يحدّه هذا الزمكان، بل هو موجود في بعد مجهول لنا وأكثر تعقيدًا؟

لماذا يضعنا الله في اختبارات في هذه الدنيا، وهو بعلمه المسبق مطلع على نتائجها؟

لو فرضنا أن الله قام بمعاقبة أشخاص ومكافأة آخرين، وفقًا لعلمه المسبق من دون أن يختبرهم، أي دون أن يعيشوا في الدنيا، سيكون التساؤل الموجود عند كل البشر، والذين يكافَؤون قبل الذين يعاقبون، لماذا نحن نكافَأ على ما لم نفعل والآخرين يعاقبون على ما لم يفعلوا، أتصور أنه لو كان الرد عليهم أنني لم أختبركم لأنني أعلم مسبقًا نتائجكم، فلم يكن هناك أي داع لأن تعيشوا في الدنيا للاختبار، أتصور أن حتى من يكافَؤون لن يكونوا راضيين بما ينالون، فما بالك بالذين يعاقبون.

إذن مسألة الاختبار هي ليست من أجل الله كما يغلب على أفهام الكثيرين، بل هي من أجل أن نتحمل مسؤولية ما نفعله في هذه الدنيا من خير أو شر.

أين كان الله قبل الخلق؟

عندما نسأل أي شخص أين هو، فنحن نسأله عن مكان تواجده وعن بعده عنا حتى نحدد موقعه، فإذا كان موجودا مثلاً في منزله فهذا يعني أنه محتوى داخل هذا المكان، وإذا كان منزله قريبا أو بعيدًا فهذا يعني أنه من الممكن الوصول إليه بعد وقت قصير أو طويل. فلولا المكان والزمان لما كان من الممكن أن يكون هناك حدود لأي شيء في دنيانا، فالمكان يعني أن أجدك وتجدني، واللامكان يعني ألا نجد بعضًا وهذا يعني عدم احتواء شيء لنا، وكذلك الزمان يعني أن أنتظرك وتنتظرني، واللازمان يعني انعدام الانتظار وانعدام الوقت تماماً مثل النوم، عندما نستيقظ لا نشعر بالساعات التي مرت ولا بمكان نومنا، لأننا ندخل فيما يسمى بالموتة الصغرى، فلا نشعر بالزمان ولا حتى المكان، كذلك عندما استيقظ أهل الكهف ظنوا أنهم ناموا يوم أو أقل من ذلك، فلم يشعروا بالزمن بالرغم من مروره، لذلك فإن تجربة النوم هيٍ معجزة بحد ذاتها لأنها تخرجنا من قوانين هذه الحياة إلى قوانين مختلفة تماماً، تخلو من الزمان والمكان.

إن غرضي من هذا السرد الذي ذكرته هو أننا نحن البشر في هذه الحياة ندخل كل يوم بدون أن نلاحظ في تجربتين، تجربة الصحو ويكون فيها مكان وزمان، وتجربة النوم وينعدم فيها المكان والزمان، ونحن مخلوقات، وعندما نقيس ذلك على الله يكون القياس مستحيلاً لأنه قد خلق المكان والزمان، وكون أن نسأل أين كان الله، فكأننا نطلب منه أن يكون محتوى في شيء قد خلقه لنا، فغير منطقي أن يحتوي المخلوق الخالق، وهذا يعني أن بعد خلق السماوات والأرض أو قبل خلقهما أو حتى بعد فنائهما لا يغير في الإجابة عن السؤال المطروح، لأنه خارج منظومة الزمان والمكان واللذان يعتبران أحد مخلوقاته كما ذكرت.

إذا قبل أن يخلق الله الزمان والمكان كان الله في الأزل، أي كان الأول قبل أن يخلق المكان والزمان وعندما خلقهما، خلقهما لمخلوقاته وليس له، ولم يغير ذلك من كيانه شيئًا. ولأن الله أزلي الوجود، ولا نهائي الكينونة، فلا يلزم له مكان ليتواجد فيه ولا زمان ليعيش فيه، والقرآن يصف الله بأنه نور السماوات والأرض. ونحن نعلم أن النور طاقة، ونعلم أن الطاقة لا تفنى ولا تستحدث من العدم، وكذلك الله عز وجل لا يفنى ولا يستحدث من عدم. الله هو ما يمكن

أن نصفه بقدراتنا المحدودة في الفهم والوصف بالطاقة الأزلية الذكية التي وجدت قبل كل الأشياء، وكانت السبب في إيجاد ما هو موجود، والتي أوجدت الأين والكم. وقد يسأل سائل، هل يصح أن نقول أين الله موجود؟

نقول أن الإجابة قد تأتي على أحد ثلاثة أوجه:

الوجه الأول أن نقول أن الله موجود خارج الكون الذي خلقه وفي هذه الحالة نواجه بمشكلة وهي أنه ما هو خارج الكون يكون العدم، ووجود الله في العدم يجعله جزءاً من العدم، وهذا لا يصح.

الوجه الثاني أن نقول أن الله موجود في الكون، وهذا كذلك لا يصح لأنه يكون محدوداً بمحدودية الكون، والله لا حدود له.

الوجه الثالث أن نقول أن الله موجود في كل مكان وهنا يكون جزءاً من مخلوقاته ويكون وجوده مرتبطًا بوجود مخلوقاته، وهذا كذلك لا يصح.

إذن ما هو الوصف الأدق لتحديد كينونة وجود الله، بشكل يفصله وصفا ولا يربطه بالأوجه الثلاث السابقة؟ لابد من صنع دائرة لغوية مغلقة تقوم بذاتها وتستمر باستقلالية تامة لمواصلة وصف وجود الله وهي أن نقول "الله واجب الوجود لذاته". فيكون الله مسؤولا مسؤولية مستقلة عن وجوده جل جلاله.

نظرية الانفجار الكبير في ميزان العلم

النشرات العلمية الحديثة تشير إلى أن الانفجار الكبير لم يحدث، وأن الكون نشأ بفعل طاقة أزلية، لأنه من المستحيل أن ينشأ من العدم إلا عدم، وهذا يتوافق تماماً مع النظرة الدينية لنشأة الكون، وهي الخلق المرتب المنظم عن طريق مسبب، أما عن ما ينسبه البعض بأن الآية التي تقول:

«أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (30) » سورة الأنبياء.

هي إشارة إلى ما يعرف بنظرية الانفجار الكبير، فقد ارتكب هؤلاء خطأ جسيمًا، لأن في شرح هذه الآية معنى آخر تمامًا سأحاول أن أوجزه.

قال أوائل المفسرين أن السماء الرتقاء هي التي لا تمطر، والأرض الرتقاء هي التي لا تنبت، ففتق الله السماء بالماء، نزل على الأرض ففتق الله الأرض بالنبات، وتأتي الآية التي تليها متممةً للمعنى بقول الله:

«وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ..»،

أي أن هذا الماء الذي أحيا الأرض بالنبات هو كذلك سر الحياة لكل ما هو حي، ويمكن الرجوع لهذا الرأي في تفسير الطبري، حديث ابن عباس. وللأسف عندما تم ربط هذه الآيات بالانفجار الكبير حدث خطآن جسيمان، الأول هو أن الله قد أورد في القرآن خلق الأرض والكون، وقد كان خلقًا منظمًا غير عشوائي فقال تعالى:

«قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ(9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ(10) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(12)» سورة فصّلت.

فلا يصح أن نقول أن الله قد خلق الكون بشكل منظم ومتتال تارة، ثم نقول أنه خلق بانفجار عشوائي تارة أخرى، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، كيف سمح لأنفسهم من قاموا بالادعاء بأن الآية الثلاثين من سورة الأنبياء تتحدث عن نظرية الانفجار الكبير، ضاربين بعرض الحائط التفاسير المنطقية للآية، والتي لا تتعارض مع الآيات التي ذكرت الترتيب الإلهي لخلق الكون، لقد صنع هؤلاء ارتباكا كبيرا في عقول الملايين، جاعلينهم يصابون بشكوك في قدسية قرآننا العظيم.

الخطأ الثاني هو أنهم ربطوا صحة نظرية علمية بصحة القرآن المقدس، وعندما سقطت هذه النظرية، كان هذا سببًا لشك العديدين في صحة القرآن ونسبته لله.

من هنا أريد أن أؤكد أن المجتمع العلمي يرى أن نظرية الانفجار الكبير أصبحت عبئًا كبيرًا على العلم، وذلك لاستحالة خلق الكون من العدم بنفسه، فالعدم لا ينشئ شيئًا وهذا بحد ذاته يضرب قانون الديناميكا الحرارية التي نشأ منه كل المعادلات الكمّية التي نعيش بها علميًا، يضربها بمقتل. إذ ينص قانون الديناميكا الحرارية على أن الطاقة لا تفنى ولا تنشأ من عدم، وإنما تتغير من صورة لأخرى. إذن ليس هناك انفجارٌ كبير، بل هناك طاقة أزلية موجودة قبل أن يوجد كل شيء، هذه الطاقة ذكية وعاقلة ومتطورة، هي المسؤولة عن ما هو موجود حولنا. هذا ما يقوله العلم، أما ما يقوله المؤمنون تصديقًا للعلم هو:

« اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (35) » سورة النور.

هذا ما وصف الله به نفسه في القرآن. اسأل أي عالم مبتدئ عن النور سيقول لك أنه طاقة، والطاقة لا تفنى ولا تستحدث من عدم، والخالق كذلك لا يفنى ولا يستحدث من عدم.

العلم والوعي الإنساني وإثبات وجود الله

إثبات وجود خالق أو إله هي مسألة إيمانية وليست مسألة علمية مادية، لأن فرضية الإيمان بخالق تحتم على المؤمن اعتقادًا بأن العلم من الثوابت الكونية التي أوجدها هذا الخالق وقام باكتشافها المخلوق لخدمة حياته في هذا الكون، وهذا يجعل العلم من المخلوقات مثله كمثل سائر البشر، مما يتعذر عليه(العلم) إثبات وجود من أوجده.

وكما ذكرنا فإن رؤية الله تنسف مبدأ الإيمان لأن الإيمان هو الاعتقاد الغيبي بوجود إله، فإذا اكتشفناه سقط الإيمان وأصبحت فكرة وجودنا من أجل الاختبار عبثية.

إن قدرتنا على رؤية الأشياء هو بسبب ما لها من خواص فيزيائية من أبعاد وحجم وكثافة، لذلك فإن كل ما نراه هو ما يناظرنا في درجة الخلق من كل ما هو مادي حولنا من بشر وحيوانات ونباتات وحتى من الجماد، فإذا نجح الإله أن يعطينا حواسًا لنراه أو ندركه، فهذا يعني أنه نجح بخلق نظير له، وهذا من المحال، لأن المخلوق دومًا لا يكون على درجة كمال الخالق.

ويبقى التساؤل عن العلاقة ما بين الخالق والإنسان والعلم، ما الذي يجعل سلوك البشر متشابهًا في الرغبة في العلم والمعرفة واستكشاف ما هو مجهول؟ هذه آلية موجودة لدي كل البشر بتفاوت ما بين زيادة ونقصان، إلا أن كل إنسان يرغب في أن يعرف شيئًا جديدًا، هناك وعي ما لدينا يدفعنا إلى الرغبة في العلم، هذا الوعي ليس نتاجًا فرديًا لإنسان دون الآخر، بل هو سلوك جماعي للبشرية يشير إلى أنه مكون ثابت من سيكولوجية الإنسان، إن كل ما وصلنا إليه من تكنولوجيا ورفاهية منذ بدء الخليقة وحتى الآن ما هو إلا نتاج لذلك الوعي الجمعي الإنساني بالرغبة في العلم.

وبما أن هذا الوعي هو أمر موجود لدى كل البشر، وأن الإنسان ليس هو مصدر هذا الوعي، وأن هذا الوعي يدفعنا لمعرفة طبائع الأشياء وأصلها، ويدفعنا إلى الرغبة في معرفة حقيقة وجود الله، فإن الوعي العلمي والمعرفي لدينا هو إشارة إلى وجود ذلك الخالق العظيم.

التفكير المنطقي للاستدلال على وجود الله

عندما ننظر إلى البشر في كوكبنا، نجد أن الإنسان بغض النظر عن إيمانه بأديان سماوية، أو حتى ما يعرف بالأديان الأرضية مثل البوذية والهندوسية والبهائية، فالكل يجمعه قاسم مشترك وهو فكرة وجود الإله، حتى سكان الأرض في الأماكن النائية والجزر والغابات، التي لم تصلها أي رسالة، نجد أنهم يؤمنون بإله ما. ويعني ذلك سكان هذا الكوكب تجمعهم فكرة وجود الإله، سواء كان الله أو

بوذا أو شمس أو قمر أو نار أو بقرة أو حتى تمثال، وعندما يجمع البشرية سلوكًا مشتركًا، يعرف هذا بالغريزة، تمامًا كغريزة الجوع والعطش والتكاثر.

ويبدو جلياً أن من وضع هذه الغريزة في كل البشر أراد أن يُعرَف الإنسان بوجوده، تمامًا كغريزة الجوع بغرض الأكل، وغريزة التكاثر بغرض الحفاظ على النوع. وعلى نفس هذه الشاكلة فإن غريزة الإله قد وُجدت بداخل الإنسان بغرض معرفة وجوده.

حتى نظرية إله الفجوات التي يدعيها غير المؤمنين على المؤمنين، تكررت في كل حضارات الأرض وفي كل الأزمان، مع العلم بأن العوائق الطبيعية بين القارات مثل الصحاري والمحيطات كانت تشكل في الماضي تحديًا حقيقيًا يمنع التبادل المعرفي والمعلوماتي بين البشر، ومن المعروف أن مصطلح إله الفجوات يطلقه غير المؤمنين على المؤمنين عندما يقومون بتفسير الظواهر الخارقة بأنها من صنع الإله لحل ما استصعب على عقولهم، فهل يعقل أن يقوم كل البشر في شتى بقاع الأرض باستخدام نفس المنطق لتفسير ما عجزوا عن فهمه؟ لو كان مجموعة أو اثنان أو أكثر قد قامت بهذا السلوك، لكانت نظرية إله الفجوات مقبولة، لكن أن يكون هذا السلوك جمعي فذلك يحتم علينا أن نكون أكثر إنصافا في النظرة إلى هذا الأمر.

فإذا كان هذا السلوك الإنساني الغريزي المشترك ليس دليلاً على وجود إله ما، فلماذا وُجد وعلام يدل إذن؟ ولماذا دأب الإنسان على مر العصور على البحث عن إله يعبده سواء أتته رسالة أم لم يأته شيء؟

لماذا يخاطب الله برسالاته الإنسان دون باقي المخلوقات؟ وما مدى صحة الإسلام في ظل تشابه الأديان؟

كيف يكون إله الإسلام عظيمًا كما يصوره القرآن، وقد خلق الكون والمجرات، ونحن نكاد نكون لا شيء بالنسبة لكل هذا وفي نفس الوقت هو مهتم بأفعالنا وتصرفاتنا ويبعث لنا شرائعًا ويترك باقي الكون؟ وكيف نعرف أن الإسلام صحيح، ونجد في الواقع أن كل الأديان تتشابه في محتواها، مما يشير إلى أنها منقولة عن بعضها البعض؟

نعم يصور الإسلام الإله بأنه عظيم وقادر، مثله مثل كل الأديان الأخرى، فكل الأديان تشترك في عظمة الإله وقدرته، وبالفعل نحن شيء لا يذكر بالنسبة لباقي الكون، فلماذا يهتم هذا الإله العظيم بما هو لا يُذكَر ويترك الكون بأسره؟

لو نظرنا لكل ما حولنا من مخلوقات سواء على كوكبنا أو على أي مكان آخر داخل أو خارج المجموعة الشمسية لوجدنا أننا المخلوق الوحيد الفريد بين سائر المخلوقات، سواء كانت هذه المخلوقات جمادًا أو حيوانًا أو نباتًا، فنحن تميزنا القدرة على العقل واتخاذ القرار وهو ما ليس موجودًا في أي مخلوق آخر؟ وهذا يستدعي أن يكون لوجودنا سبب مختلف عن البقية، مما يطرح سؤالاً آخر، لماذا نحن مختلفون في قدرتنا العقلية عن باقي المخلوقات؟ فلو كانت كل المخلوقات تعقل مثلنا أو لو كنا لا نعقل مثل بقية المخلوقات، لكان السؤال المطروح يثير شكوكًا موضوعية عن مدى مصداقية وجود الإله من عدمه أو دليلاً على أن هذا الإله فكرة من صنع البشر، لكن تميزنا عن البقية هو الذي يعطي هذا الإله سببًا وجيها لمخاطبتنا دونًا عن باقي ما في الكون.

أما بالنسبة لمدى صحة الإسلام وتشابهه مع كل الأديان في المحتوى العام، بالفعل يظن الناظر لأول وهلة أن الإسلام مأخوذ من أديان أخرى، بل أذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، إلى أن معظم الأديان تشترك في أجزاء كبيرة من محتوياتها، وهذه إشارة إلى أن مصدرها واحد وهو الله، وهذا التشابه يتسق مع مفهوم العدالة الإلهية لإيصال رسالاته لكافة سكان الأرض دون تمييز، وأنه ليس هناك شعبٌ مختارٌ أو مفضلٌ بالنسبة لله.

من المستحيل افتراض أن تشابه الأديان يعود إلى نقلها عن بعضها البعض، فالمسافات بين القارات والعوائق الجغرافية من محيطات وجبال وغابات، كانت في الماضي تعيق تناقل البشر، بالإضافة إلى أن وسائل الكتابة والتدوين كانت بدائية ومحدودة، كل هذا يؤدي إلى نتيجة منطقية واحدة وهي أن مصدر كل هذه الشرائع واحد وهو الخالق، وأن هذه الشرائع والأديان ما هي إلا تواصله مع البشر.

لقد قتل هتلر الملايين ويسمى مجرمًا، وقد قتل الله الملايين بالطوفان ويسمى الرحمن الرحيم؟ كيف ذلك؟

هذا سؤال يجاب عليه بوجهتيِ نظر.

الأولى للمؤمن بالله (الإله الغيبي)، فهو يرى أن هتلر قتل ملايين الأبرياء بدون أي ذنب فعلوه، فاستحق لقب مجرم بامتياز، ويرى كذلك المؤمن أن قوم نوح ولوط وعاد قد جاءتهم بينات واضحة وأنبياء من الله، فاستهزؤوا بها وعاثوا ظلمًا للبشر وفسادًا فنالوا جزائهم بما أفسدوا.

أما وجهة النظر الأخرى وهي نظرة الملحد الذي يؤمن بالكون كإله مادي فهو يتفق مع المؤمن بالله في كون هتلر مجرمًا، لكن استشكاله بالحديث عن إله المؤمنين يوقعه في مغالطة كبرى، لأن الملحد يؤمن بإله مادي وهو الكون، وهو من حيث لا يدري يكفر بهذا الإله وهو آخر إله تبقى له، لأنه يتهمه بالظلم والبطش، فهو غير مؤمن بأنبياء أو رسل قد جاؤوا لينهوا أقوامهم عن العدوان على الضعفاء، فبهذا يكون الملحد قد أفقد نفسه إيمانه بإلهه المادي من حيث لا يدرك.

فإما أن تكون مؤمنًا بإله غيبي وبرسل ورسالات، فيكون مقبولاً النذر التي جاءت للظالمين من أقوامهم، وإما أن تكون مؤمنًا بإله مادي (الكون) وتتقبل بطشه بالبشرية بدون أي سبب أو حتى تحذير مسبق، الإنصاف يحتم علينا أن نطرح مثل هذا التساؤل.

هل الله موجود؟ إذا كان الله موجودًا فلماذا لا يتدخل لوقف كل ما يجري في العالم من اعتداء على الأبرياء؟

لو تدخل الله لوقف أي جريمة أو اعتداء أو خطأ أو مرض في العالم لما استطاع أي إنسان أن يرتكب خطأ أو يمرض، ولكانت الأرض مكانًا يوازي الجنة، وبالتالي فإن فكرة الحساب بعد هذه الحياة ليست لها معنى، لأن الكل ببساطة لن يستطيع أن يخطئ.

إن كوّن الإنسان مخيراً في القرارات التي يتخذها في حياته، تتسق تماماً مع عدم تدخل الله في أي مما يحدث حولنا، وترك القرار للإنسان أن يفعل الخير أو الشر. نعم إن المسؤولية فيما يجري من أي أحداث حولنا تقع علينا تماماً، والاعتقاد بأن الإله هو شخصية مثل سوبرمان تتدخل عندما يحدث أي خطأ هو تصور يتنافى تماماً مع وجودنا في هذه الدنيا لنُسأل لاحقًا عما نفعله من خير أو شر.

إن مسؤولية كل شيء على هذه الأرض في هذه الحياة مفوضة إلينا نحن، فلو عالج الله كل الأمراض لما وجد على ظهر هذا الكوكب طبيبٌ أو عالمٌ أو باحث، لأن الكل سينتظر سوبرمان ليفعل كل شيء له، حتى ليطهو له طعامه.

إذن يتوجب على من ينفي وجود الله بسبب عدم تدخله لمنع الشر أن يسأل نفسه الأسئلة التالية، كيف يكون الإنسان مخيراً وهناك من يمنعه من الاختيار من خلال تدخله؟ وكيف يكون هناك حساب في الآخرة، وهناك من يمنع أي خطأ من الحدوث في الدنيا؟

غريزة الإيمان بالله عند الإنسان وأثرها السلوكي على غير المؤمن بالله

يسمي علماء النفس السلوك الموروث غير المكتسب والذي لا ينطوي على خبرة أو تعلم، والذي يكون نمطيًا عند نوع من الكائنات الحية من الجنسين أو أحدهما بالغريزة، فكل ما يشترك فيه البشر من سلوكيات مختزلة في وجدانه يعرف بالغريزة، لكن هل من الممكن تصنيف الإيمان بوجود إله ما بالسلوك الغريزي عند الإنسان؟

عندما ننظر إلى البشر في كوكبنا نجد أن الجنس البشري بغض النظر عن إيمانه بأديان سماوية أو حتى ما يعرف بالأديان الأرضية مثل البوذية والهندوسية والبهائية، يجمعه قاسم مشترك وهو فكرة وجود الإله، حتى سكان الأرض في الأماكن النائية والجزر والغابات التي لم تصلها أي رسالة، نجد أنهم يؤمنون بإله ما.

إذن سكان هذا الكوكب يجمعهم قاسم مشترك وهو فكرة وجود الإله، سواء كان الله أو بوذا أو شمس أو قمر أو نار أو بقرة أو حتى تمثال، وعندما يجمع البشرية سلوكٌ مشترك، يعرف هذا بالغريزة كما ذكر علماء النفس، مثل ذلك غريزة الجوع أو الخوف أو البقاء أو الغريزة الجنسية.

ومن هذا المنطلق يكون غير دقيقٍ أن نزعم أن الإلحاد هو عدم الإيمان بشيء أو حتى عدم الإيمان بإله، لأن أي إنسان حتى الملحد يحتوي على غريزة الإيمان بالله، فلا يوجد إنسان حي ليس فيه ما هو موجود في البقية، فكيف يكون الإنسان حيا وليس لديه غريزة الإيمان كسائر البشر، حتى وإن كان ملحدًا؟

المتابع لخط التطور الفكري للشخص الملحد يجد أنه كان مؤمنًا بالله، ثم فقد الإيمان بهذا الإله وبدأ بإنكاره، لكنه في نفس هذه اللحظة بدأ بالإيمان بإله جديد، هذا الإله هو الكون، ولأنه لا يريد الإيمان بإله غيبي، استبدله بإله مادي يستطيع أن يراه ويلمسه، لكن لا تزال غريزة الإيمان عنده تعمل مثلها مثل سائر البشر، بل وإن له من المقدسات كالقرآن والإنجيل عند المؤمنين بالله، هذا المقدس هو العلم، نعم العلم هو ما لا ينطق عن الهوى بالنسبة للملحد، هو الكتاب الذي يرى فيه إشباعًا لغريزة الإيمان التي تسيطر عليه مثله مثل باقي

الناس، وهو يصدق العلماء فيما يقولون ويثق بهم كما يصدق المؤمن بالله الأنبياء ويثق بهم، إذن يؤمن الملحد بإله وله كتب مقدسة وأنبياء مثل المؤمن تمامًا، ولكن بمسميات مختلفة.

هو نفس النمط السلوكي بعينه عند كلا النوعين، المؤمن والملحد، وهو الرغبة الداخلية الملحة للإيمان بشيء ما، لكن الأول يؤمن بإله غيبي والثاني يؤمن بإله مادي، لكن السؤال الذي يطرح نفسه، ما هو الفرق بين الإله المادي والإله الغيبي؟

الإله المادي هو الكون، ومخلوقاته هي كل ما نراه وندركه حولنا ليس أكثر ولا أقل، وهذا هو ما يؤمن به الملحد، هذا الإله يفعل أشياء منظمة ومتكررة ومتوقعة، فالهواء عندما يصطدم بالرمال في الصحراء ينشئ تموجات في الكثبان الرملية، والماء عندما يصطدم بالصخور في النهر يحدث تعرية فيها، والكلور عندما يتفاعل مع الصوديوم ينتج كلوريد الصوديوم (ملح الطعام)، والماء حين ترتفع حرارته يتبخر وعندما تنخفض حرارته يتجمد؛ كما نرى، هذا الإله بالفعل يقدر على الخلق، إلا أن كل مخلوقاته متكررة ومتوقعة، هو ليس إلها مبدعا ولا يقوى على الابتكار؛ فلو سرنا في الصحراء ووجدنا مكتوبًا على الرمال "أنا الإله المادي وقد كتبت هذا حتى يؤمن بي أهل الأرض"، أي إنسان متوسط الذكاء سيدرك أن هذه مزحة من شخص قد مر في هذه البقعة وكتب هذا الكلام، أتدرون لماذا؟ لأن هذا الإله المادي محدود لدرجة أن عقل الإنسان أكثر تعقيدًا وابتكارًا منه، فهذا الإله قد خلق السيليكون والنفط والبرق، لكنه لم يستطع تحويل السيليكون إلى دوائر كهربائية، والنفط إلى بلاستيك، والبرق إلى كهرباء، ولم يستطع دمجها معًا ليصنع هاتفا محمولا، لكن الإنسان استطاع ذلك، بل وأكثر من ذلك بكثير.

يبدو أن البشر يملكون وعيًا يدفعهم إلى الرغبة في العلم والمعرفة. هذا الوعي ليس نتاجًا فرديًا أو مكتسبًا، بل هو عبارة عن آلية متواجدة في كل البشر بين زيادة ونقصان، تجعلنا دومًا نرغب في أن نعرف شيئًا جديدًا، وكل ما نحن فيه من تطور تكنولوجي ورفاهية، ما هو إلا نتاج لهذا الوعي، هذا الوعي يجعلنا متفوقين على هذا الإله المادي، بل يجعلنا نتلاعب بمكوناته من الطبيعة ونختبرها

ونتفوق عليها، نعم لقد قام الإنسان بالهيمنة على هذا الإله بكل مخلوقاته وأصبح سيدًا له، فهل يعقل أن يهيمن المخلوق على إلهه؟

لكن يجب أن نتساءل، هل للإنسان مسؤولية عن وجود هذا الوعي العلمي المعرفي بداخله؟ بالطبع لا، هل العلم الذي هو الكتاب المقدس لدى الملحدين، أخبرنا عن مصدر هذا الوعي؟ بالطبع لا، إن مصدر هذا الوعي العلمي المعرفي لدينا هو بلا شك الإله الغيبي، أتدرون لماذا؟ لأنه هو الذي جعل كل البشر يختارون أن يبحثوا عنه سواء وصلتهم رسالات أم لا، سواء في بدء البشرية قبل ظهور الأديان أو في عصرنا الحالي بعد ظهور العلم، هو يريد البشر أن يصلوا إلى حقيقة وجوده عن طريق هذا الوعي العلمي لديهم، حتى الملحدين عندما اختاروا الكون إلها ماديًا يؤمنوا به، لم يعجبهم، فدخلوا في صراع مع غريزة الإيمان لديهم محاولين أن يقتلوها ليتخلصوا من هذا الإله الغيبي، ولم ينجحوا في التخلص من هذه الغريزة حتى الآن، ففي كل لحظة يقولون أنه ليس موجودًا، ليس موجودًا، فإذا كان غير موجود، فلماذا يفكرون في أنه غير موجود؟ فلا أحد منا ينفي وجود طائر العنقاء، لأنه بالفعل غير موجود، والكل يعلم أنه من القصص والأساطير التي كانت أمهاتنا تحكيها لنا قبل النوم، إذن الإصرار على عدم وجود هذا الإله الغيبي هو دليل مباشر على أن هاجس وجوده لا يفارق وجدان أي إنسان سواء آمن أم لم يؤمن بوجوده.

السؤال الأخير، هذا الإله المادي الذي يخلق وفق منظومة معادلاتية متكررة ومتوقعة، ما الذي يجبر معادلاته أن تتكرر كل مرة وتعطينا نفس النتائج المتكررة المتوقعة؟ يبدو أن إلها ما غيبيًا يهيمن ويسيطر عليه ويجبره على أن لا يتصرف بملء إرادته. هذه هي العلاقة بين الإله المادي والإله الغيبي.

يسعى العلماء جاهدين لتخليق خلايا حية تحاكي خلايانا، ألن يكون هذا دليلًا على عدم وجود الله؟

يبذل العلماء قصارى جهدهم للتوصل إلى تخليق كروموسومات، أو خلايا حية، أو أنسجة مشابهة لأنسجة أجسادنا، سنوات طوال من البحث العلمي والمعملي،

ميزانيات ضخمة من الدول المتقدمة لخلق لما يشبه ما لدينا من خلايا أو أنسجة. الغريب في هذا الأمر أن غير المؤمنين بوجود الله يؤمنون أن ما يحاول التوصل إليه العلماء سوف يعد خلقًا يقف وراءه رجال عظماء، لكن في نفس الوقت يرون أن وجودنا مكتملي الخلقة في هذه الحياة، ليس وراءه أحد غير الصدفة وليس الخالق العظيم!! وهذه مغالطة كبرى تدل على ازدواجية في معايير التفكير المنطقي.

العلاقة بين الملحد وبين الله

يحاول الكثير من الملحدين مراراً وتكراراً إثبات عدم وجود الله، بل ويسخر بعضهم منه ويتهم فكرة وجوده بأنها ظالمة، لما يحدث من مشاكل وأمراض وفقر في أنحاء العالم؛ تجدهم يكتبون عن ذلك في مواقع التواصل الاجتماعي ويتكلمون عن ذلك مع الجميع، وعندما لا يتفق معهم أحد يتهمونه بالرجعية والدوغمائية، ولا يتوقفون عن الإصرار على فرض آرائهم.

بالطبع حرية الاعتقاد مكفولة للجميع وليس من حق أي إنسان أن يفرض ما يراه صحيحاً على الآخرين، وهذا يشمل المؤمنين وغير المؤمنين بوجود الله، لكن لا بد لنا أن نتوقف قليلاً عند هذا السلوك الذي يقوم به الكثير من الملحدين، لماذا بالرغم من استقرار آرائهم على عدم وجود الله، يصرون على الاستمرار في ذكر ذلك بكل الطرق من سخرية أو غضب أو حتى كطرح عادي؟ أليس الأجدر أن يمضوا قدماً بحياتهم ويتركوا الحديث عن هذا الأمر، ويشغلوا أنفسهم بالأشياء التي يحبونها والتي هي أكثر فائدة بالنسبة لهم، خاصة أن الموت بالنسبة لهم هو نهاية المطاف وليس هناك شيء بعده غير العدم؟

في العلاقات الإنسانية بين الرجل والمرأة، عندما يكون لأحدهما علاقة سابقة غير ناجحة، السلوك الطبيعي ألا يتكلم أو يتذكر ذلك الشخص الذي مر بالعلاقة السابقة عن مدى كرهه لمن كان يعرفه، أو حتى سوء الفترة التي قضاها معه، وذلك ببساطة لأنه من المفترض أن يكون قد نسيه وطوى هذه الصفحة من حياته، لكن الخطر الحقيقي هو أن يستمر هذا الشخص في إبداء النقد

والسخرية والغضب أمام الطرف الآخر الحالي، فلو سألت أي صديق أو شخص تثق فيه، سيقول إجابة الكل يعلمها، وهي أنه لا يزال يفكر بالشخص الذي كان يعرفه في الماضي، بل ولا يستطيع أن يخرجه من عقله نهائيًا، وأنه غير مرتاح في حياته الحالية.

وهذه هي العلاقة بين الملحد والله، فلا يبقى له غير أحد خيارين، أن يخرج هذا الأمر من عقله تمامًا، وهو ما لم يوفق فيه، أو أن يعود إلى حبه الحقيقي الذي طالما عاند نفسه وعقله لكي ينفي الإحساس الذي يتملك منه عندما كان مقرا بإيمانه به.

الفصل الثاني

الروح والحياة بعد الموت

هل هناك حياة بعد الموت؟

هو سؤال محير لأن كل من يجيبه يتكلم عن هذا الأمر بشكل نظري وفلسفي، فلم نقابل أو نسمع أحدًا من الذين ماتوا حتى يروي لنا تجربته، لكن أنا من الناس الذين يؤمنون أن لا شيء يحدث حولنا بمحض الصدفة أو العشوائية، فلو كانت الصدفة هي المسيطرة على الحياة التي نعيش فيها لما استطاع عالم واحد أن يضع نظرية أو معادلة، لأن النظريات والمعادلات تتطلب نظامًا متكررًا ليتم تطبيق المعادلات على أساسه، أما الصدفة فلا تتكرر بنظام وبالتالي يستحيل أن يقام أي علم على أساسها، السؤال الذي يُطرح بناءً على ذلك، ما هي الحكمة وراء خلق الإنسان على عدة مراحل؟ مرحلة على شكل حيوان منوي يعيش بشكل بدائي في مكان محدود بحواس محدودة وعمرٍ قصيرٍ، ثم ينتقل إلى مرحلة أكثر تطورًا على هيئة جنين يعيش في مكان أفضل نسبيًا بحواس أكثر تطورًا وعمر أطول، ثم ينتقل إلى المرحلة التي نحن فيها كبشر والتي هي الأكثر تطورًا؛ لماذا لم نخلق مباشرة بالصورة التي نحن عليها؟ أليس من الممكن استنتاج نظرية أو معادلة من هذا التطور في مراحل تطورنا الحيوي تؤدي إلى انتقالنا إلى مرحلة أخرى جديدة؟ والذي يلاحظ أننا لا نذكر أي شيء عن مراحل حياتنا السابقة، مع علمنا بحدوثها، كأننا نموت ثم نعيش مرة أخرى، كأن الحيوان المنوي يموت ويبعث على هيئة أفضل وهي الجنين، ثم يموت الجنين بعالمه ويبعث من جديد بهيئة أفضل في عالم أفضل. نظريا عندما نموت من هذا العالم، نولد على هيئة أفضل في عالم أفضل.

كيف تكون السعادة في الآخرة ولا يكون البعض مع أحبائهم في نفس المكان؟

سؤال بديهي جدًا، ابن غير مؤمن لأم مؤمنة، كيف تكون الأم سعيدة في الجنة وابنها يعذب في جهنم؟ السؤال المطروح كيف تطاق الجنة بلا أحبابك في الدنيا؟ من المؤكد أن هذه سعادة منقوصة جدا، إذن لابد أن يكون هناك أمر ما حتى تتحقق نظرية السعادة المطلقة في الآخرة؟ للإجابة على هذا السؤال يجب أن

نعلم أن لكل منا طبيعتين، طبيعة مادية تتمثل في أجسادنا التي نراها ونتعامل بها، وطبيعة ميتافيزيقية تتمثل في أرواحنا التي تسكن أجسادنا والتي تمثل المحرك لها. بالطبع نحن لدينا خبرة كبيرة باحتياجات أجسادنا والغرائز المرتبطة بها من جوع حتى نأكل، غريزة جنسية لاستمرار النوع، وخوف للحفاظ على الحياة، وحب لإبقاء كافة العلاقات الاجتماعية مع من حولنا، إلى آخر ذلك. أما بالنسبة لما هو مرتبط بأرواحنا فنحن لا نعلم الكثير عنها غير أنها دخلت في أجسادنا في أول مراحل حياتنا ثم تتركها بعد ذلك، فالروح هي الفارق بين الحياة والموت في دنيانا.

عندما نتكلم عن احتياجاتنا الدنيوية يجب أن ندرك أننا نتكلم عن احتياجات أجسادنا المرتبطة بغرائزها، فالأم عندما تضع طفلها تحركها غريزتها الجسدية لتتعلق بوليدها وتحبه حتى ترعاه ليكبر ويصبح قادراً على الاعتماد على نفسه، وتبقى هذه العلاقة طيلة حياتهما، فلو لم يكن عندها هذا الحب لما اهتمت أي أم بأطفالها ولتركتهم؛ إذا هناك مبرر جيد لهذه الغريزة وغيرها من أجل تكامل حياة الإنسان الدنيوية واستمرارها.

نحن نعلم أنه في رحم الأم يتم تصنيع جسد الإنسان الذي سيعيش به في الدنيا، لكن الأم غير مسؤولة عن إكساب هذا الجسد الروح المحركة لهذا الجسد، هذه الروح تدخل الجسد بشكل غير مفهوم تماماً كما تغادره بشكل غير مفهوم، لكن المفهوم هو أن هذه الروح لا تحتاج ما يحتاجه الجسد لأنها طاقة غير مادية غير قابلة للفناء، ولذلك فإن أي متعة موصوفة في الكتب السماوية هي وصف مجازي لنا حتى نستوعب فكرة الثواب الأبدي، لأن أي وصف حقيقي لن نفهمه بسبب محدودية مفهوماتنا الدنيوية.

وكذلك وفقًا لما جاء في الأديان أن الله خلق الأرواح جميعها وتباعًا تدخل هذه الأرواح الدنيا وتخرج منها مرة أخرى عائدة من حيث أتت بعد أن أتمت حياتها الدنيوية، فلو كانت العلاقة بين الأم والابن أو الأخ والأخت علاقة تتعدى الحياة في الدنيا لتعرف الكل على بعضهم البعض في الدنيا من الحياة السابقة، وهذا بالطبع ليس متعارفًا عليه؛ إذن ليس هناك بين الأرواح علاقة أب وأم وأخ وأخت

وأزواج، هي فقط علاقات دنيوية اجتماعية ليس أكثر كما ذكرت في الأعلى، وبالتالي فإن ما يشبع الروح يختلف عن ما يشبع الجسد على جميع المستويات.

وبمعنى آخر، فكرة أن لكل إنسان منا أم وأب في الدنيا لا تعنى أنهما أنجباه في ما قبل الدنيا كأرواح، وبالتالي تعود العلاقة بين الأرواح بعد الموت كما كانت تماماً قبل الولادة، وهذه العلاقة من الأمور الغيبية بالنسبة لنا.

إن دور الأم والأب في الدنيا هو سبب لمجيء الأبناء وسبب للمحافظة على حياتهم حتى يعتمدوا على أنفسهم، وتستمر الحياة. وأفضل مثال يمكن أن يقرب مفهوم العلاقة بين الجسد والروح هو ظاهرة تحدث لنا كل يوم، وقد ألفناها لكثرة تكرارها مع أنها بحد ذاتها معجزة كبيرة، هذه الظاهرة هي النوم، فعندما ننام نخرج من عالمنا المادي المرتبط بالزمان والمكان، إلى عالم آخر لا نشعر فيه بزمان أو مكان، وكذلك لا نشعر بكل من حولنا بما في ذلك والدينا، وتتغير مشاعرنا واحتياجاتنا تماماً، ولذلك سمي النوم بالموتة الصغرى لأن فيه إسقاط لحالنا بعد هذه الحياة، وبمجرد أن نستيقظ نعود إلى ما كنا عليه قبل أن نخلد إلى النوم.

ومما سبق نستطيع أن نكون أكثر اقتناعاً بأن مقاييسنا في الدنيا تختلف عن ما بعد ذلك، وأن تحقيق العدالة والرحمة والسعادة المطلقة هو هدف لا يمكن تحقيقه بهيئتنا المادية الحالية، وبالتالي لا يكون منصفًا استخدام المنطق الدنيوي لنفي وقوعها بعد هذه الحياة.

هل هناك إله؟ هل هناك حياة أخرى بعد هذه الحياة؟

"الطاقة والمادة لا تفنى ولا تستحدث من عدم"

الطاقة المسؤولة عن حياتنا وتحريك أجسادنا من المؤكد أنه عند تركها أجسادنا لن تفنى، بل ستنتقل لمكان آخر في بعد آخر.

هناك حياة أخرى بعد هذه الحياة، أو بمعنى أدق في الوصف، ليس هناك حياة أخرى بل استمرار في الحياة ولكن بشكل مختلف عما نحن فيه الآن.

الطاقة الأزلية العاقلة التي وجدت قبل كل شيء والتي لا تفنى ولم تستحدث من عدم، والمقصود بها الخالق، نجد القرآن يؤكد هذا القول بوصف الله بالآتي:

« اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35) » سورة النور.

هنا نجد القرآن يصف الخالق بأنه نور السماوات والأرض، ونحن نعلم أن النور طاقة؛ وهذا يؤكد تمامًا كلام العلم بأزلية الطاقة كما يقول القرآن. أما عن أجسادنا فالروح عبارة عن طاقة كذلك، هذه الطاقة هي جزء من طاقة الخالق اللانهائية. يقول الله تعالى:

«فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29)» سورة الحجر.

ويقول أيضًا: « إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ(171) » سورة النساء.

وهذه الطاقة أو الروح بداخلنا كذلك لا تفنى ولم تستحدث من عدم لأنها جاءت من الطاقة الأزلية (الخالق)، مما يثبت أن أرواحنا كانت كذلك موجودة منذ الأزل، لأنها أتت من الخالق، إلا أن أرواحنا ألبست في أجسادنا الأرضية عندما صنعت في صلب الرجل، لكن السؤال هنا، هل الروح تكون في الحيوان المنوي أم أنها تدخل في الجنين في مرحلة ما؟

«فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي»

من الممكن أن نفهم أن التسوية هي لحظة إنتاج الحيوان المنوي، ثم تدخل الروح في جسم الحيوان المنوي. من المؤكد أن الحيوان المنوي يمتلك روحًا، لأن الرجل العقيم ينتج حيوانات منوية ميتة كما يقول الطب، إذن الفرق بين الحيوان المنوي الحي والحيوان المنوي الميت هو الروح؛ ونجد كذلك أن الحيوان المنوي يمتلك منطقًا يناسب المرحلة الحياتية التي يعيشها، فهو يدرك تمامًا عندما

يكون في رحم الأنثى أن عليه أن ينقذ نفسه من الموت بالبحث عن البويضة واختراقها ليتمكن من تكوين الزايجوت.

بالنسبة للخلايا، هي تعتبر مرتبطة بالجسم الأرضي المصنوع من مكونات فانية، والطاقة هي التي تدير كل الجسم بما في ذلك الخلايا بداخله، فتجعل هذه الطاقة الجسم يستخلص الـ Coq10 من الغذاء، ثم يحوله إلى Ubiquinol، ثم يتحول إلى ATP وعن طريق الميتوكوندريا يتم إنتاج الطاقة داخل الخلية لبنائها. ومع تقدم السن والمرض تفشل هذه العملية ويبدأ الجسد بالانهيار، وفي لحظة ما يتعطل الجسد تماماً وتتحرر منه هذه الطاقة التي اكتسبها من لحظة تسويته.

إذن هنا نتأكد أن هناك شيئان، أولهما جسد أرضي يقوم الذكر بتصنيعه من الأملاح والمعادن والبروتينات والدهون التي حصل عليها من غذائه، وهذا الجسد يشكل وعاءَ. ثانياً يتم إلباس هذا الوعاء بطاقة أو بروح، لتدب الحياة في هذا الجسد.

إن ما يكسب كل منا شخصيته المميزة هو الطاقة التي بداخله لا الجسد، وهذه الطاقة هي التي لا تشيخ أو تعجز، إنما الذي يبلى وينمو ويمرض هو الجسد، الذي تغادره الطاقة عندما ينهار ويفشل في احتوائها، فتعود الطاقة إلى المكان الذي جاءت منه وهو خالقها ثانية.

«يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً(28)» سورة الفجر.

كلمة ارجعي هنا فيها دلالة على أنها كانت في نفس المكان الذي رجعت إليه؛ السؤال الذي يطرح نفسه الآن، ماذا حدث لنا قبل أن تدخل روحنا في أجسادنا؟ نجد الإجابة في الآية التالية:

«وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (172)» سورة الأعراف.

بالنظر إلى هذه الآية الكريمة نستطيع أن نفهم ما حدث لأرواحنا قبل أن تدخل أجسادنا، إذ أشهدنا الله جميعًا على ربوبيته ووجوده، ونحن أقررنا بذلك لكننا نسينا أو أُنسينا عندما جئنا إلى هذا العالم، وهو شيء منطقي أن ننسى حتى ندخل في الاختبار الذي وافقنا عليه وقبلنا به قبل أن نأتي هنا، والذي يؤكد أكثر أننا نسينا، هو أننا نسينا أشياء أخرى نحن متأكدون أننا مررنا بها مثل مرحلة كوننا حيوان منوي أو مرحلة كوننا جنين؛ فما بالك بمرحلة الشهادة بربوبية الله ووجوده ونحن طاقة في الماضي. وعندما نرجع للخالق ثانيةً حسب الآية سنتذكر العهد الذي قطعناه على أنفسنا بوجود الله وفقًا للآية، ثم يبدأ الحساب.

مما سبق نخلص إلى حقيقة من الصعب تجاهلها وهي أن العلم والقرآن يتفقان تمامًا في فكرة الطاقة الأزلية وفي فكرة أننا جزء من هذه الطاقة الأزلية، وهذا يتفق تمامًا مع فكرة الخلود والاستمرار اللانهائي.

في هذا المبحث يجب مراعاة أن وصف الإله بالطاقة الذكية هو وصف مجازي يقرب فكرة أزلية وجوده المرتبطة بعدم فناء الطاقة، ووفقًا للمفهوم القرآني عندما يصف الله نفسه بنور السماوات والأرض، فهذا كذلك لفظ مجازي لمحاولة استيعاب حقيقته التي هي أكثر تعقيدًا من أفهامنا المحدودة.

وكون أرواحنا التي لا نفهم طبيعتها لكونها غيبا ولكونها لا تنتمي للمادة التي نحن جزء منها بأجسادنا، كونها هي الفرق بين الحياة والموت، وكون الوصف الإلهي بأنها من روحه، نستطيع أن نجزم أنها كذلك أزلية الوجود.

بالنظر إلى النشرات العلمية في العقد الأخير سنجد أن المجتمع العلمي يرى بأزلية الطاقة لأن نظرية الانفجار الكبير تتعارض مع قوانين النسبية، ومع الفيزياء الكمية (Quantum Physics) فلو عدنا بالزمن إلى الوراء للحظات ما بعد انفجار النقطة الصفرية (Singularity)، وهي النقطة التي نشأ منها الكون وفقًا لهذه النظرية، تنهار تمامًا كل المعادلات العلمية، وهو ما يرجح بعدم صحة هذه النظرية.

ما يعتمده العلم الحديث حاليًا هو ما جاءت به الميكانيكا الكمية Quantum mechanics، والفيزياء الكمية لأنها تتسق تمامًا مع قوانين الديناميكا الحرارية

(Thermodynamics) والتي تقول بأزلية الطاقة، وهذا ما دفع المجتمع العلمي إلى أن يستبعد نظرية الانفجار الكبير (Big Bang theory)، بل ويراها عبئًا على الفيزياء المعاصرة.

إذا إدراك حقيقة وجود حياة بعد الموت يقترن بعدة جوانب:

* الجانب الإيماني: الثقة بصحة ما جاء في القرآن بعد الوصول إلى قناعة عقلية بما ورد فيه من حياة بعد هذه الحياة.

* الجانب العلمي: عدم فناء الطاقة بكافة صورها، لكن تغيرها من حالة إلى أخرى، يجيز تطبيق نفس المبدأ بحذافيره على أنفسنا.

* الجانب المنطقي: بما أن هناك الكثير حولنا لا نفهمه ولسنا متأكدون من حكمته، وبما أننا متأكدون من وجود خالق أو منشئ للكون، وبما أن كل ما حولنا له سبب وليس هناك شيء عبثي حولنا، إذن لابد أن يأتي وقت نفهم ما لم نفهمه، ومن المؤكد أن هذا لن يكون في هذه الحياة المحدودة.

« أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116) » سورة المؤمنون.

هل هناك روح، أم هي مجرد تفاعلات بيوكيميائية تدير الجسم والخلايا؟

يدعي الملحدون أن الروح لا وجود لها وأن ما نظنه كذلك ليس أكثر من مجموعة من التفاعلات البيوكيميائية، والتي بدورها تدير آلية إنتاج الخلايا والحركة والنمو.

علمياً كل التفاعلات التي تحدث داخل الجسم، من الممكن إجراء أغلبها في المعمل كل على حدى، لكن دومًا لضمان استمرار التفاعل لابد من استمرار وجود محفز أو (Catalyst) لكي لا يتوقف هذا التفاعل عن الاستمرار، هذا المحفز قد يكون التسخين أو التبريد أو عنصراً ما أو مركب آخر، وبمجرد توقف هذا المحفز،

يتوقف التفاعل. هذا المحفز الذي يضمن استمرار حياة الكائنات الحية هو ما يعرف بالروح.

تشكل الروح المحفز أو العامل المساعد لضمان استمرار المعادلات البيولوجية الكيميائية في جسم الإنسان وباقي الكائنات الحية، وهذه الروح هي اللغز المحير الذي يشكل العائق أمام العلم لفهم سر الحياة وإمكانية تخليق كائنات حية معمليا، ببساطة هي الفرق بين الجسم الحي والجسم الميت.

حتى الآن لا يستطيع أن يفسر العلم الكيفية التي تبدأ بها الحيوانات المنوية عند الرجل بالحركة، كل الأبحاث تتكلم فقط عن مكون الحيوان المنوي والصفات الوراثية التي يحملها، والانقسامات الخلوية التي أدت إلى تكوين جسم هذا الكائن البدائي، لكن اللحظة التي يتحرك فيها غير مفهومة تماما، وتشكل فجوة علمية حقيقية تمثل الفارق بين الحيوان المنوي الحي والميت، فالحيوان المنوي الحي والميت يتشابهان عندما يتم تصنيعهما في كل شيء عدا شيئًا واحدًا فقط هو الحياة، والعلم لم يستطع أن يفسر لماذا هناك رجل عقيم وآخر لا.

الأكثر من ذلك أن هذا الكائن ليس عشوائيًا على الرغم من بساطته، فهو عنده من الوعي بأن يبحث عن مكان البويضة في الأنثى عن طريق الزيادة في درجة حرارة المبيض، فتنقسم إلى جزء يذهب إلى مبيض وجزء آخر يذهب إلى المبيض الآخر، فيموت الذي يذهب إلى المبيض غير المهيأ للتخصيب وواحد فقط يعيش في المجموعة الأخرى كما نعلم جميعًا، كما نرى أن هذا الحيوان المنوي يمتلك وعيًا محدودًا يجعله يرغب في البقاء حيًا، وليس مجرد بروتينات ومعادن تنجرف لتصطدم بشكل عشوائي لتشكل الزايجوت.

من الصعب جدا تخطي هذه اللحظة الفاصلة في بدأ الحياة لهذا المخلوق البسيط، وتجاهل أول حركة يقوم بها ليصبح على قيد الحياة وهذه هي الروح بشكل مبسط.

وجود الروح بين الحقيقة والخيال

ينكر غير المؤمنين بالله وجود الروح داخل الجســد لأنهم يدّعون أنهم يؤمنون بما هو مادي وما يمكن إثباته، وبالنظر إلى العلاقة بين الروح والجســد، نجد أن الروح تســيطر على الجســد تمامًا، ويبدو ذلك جليًا في العديد من ســلوكياتنا، فعندما يقول رجل لامرأة أنا أحبك وتكون هي كذلك محبة له، يقوم الجســد بإفراز الدوبامين والســيروتونين، بينما لو قال نفس الكلمة رجل لامرأة لا تحبه، يقوم الجســد بإفراز الإدرينالين والكورتيســول، هذا دليل لا قطع فيه عن كون الجسد المادي تابع لكيان آخر غير مادي يهيمن عليه ويجعله عرضة لأكثر من نوع من النتائج تحت تأثير نفس الظروف المحيطة، ولا يســتطيع العلم إيجاد نظرية محددة أو تفســير لهذه النتائج، هو فقط يســتطيع شرح ما يحدث بيولوجيًا ليس أكثر، وليس عدم قدرة العلم المادي على إثبات ما هو غير مادي، دليل على عدم وجود ذلك الشيء غير المـادي.

الفصل الثالث

الأديان

الإيمان بالله والأديان

لماذا يجب الإيمان بإله أو دين ما؟ أليس من الممكن أن يفعل الإنسان الخير وأن يكون مواطنًا صالحًا بغض النظر عن أي معتقدات دينية أو إيمان بإله؟ حتى نجيب عن هذا السؤال بالتحديد دعونا نفترض أن من لا يؤمن بإله أو دين على حق، وأن كل المؤمنين يعيشون خدعة كبيرة منتظرين الحياة الأبدية والنعيم بعد الموت، هذا يعني أن الكل سواء كان مؤمنًا أو غير مؤمنٍ بإله سوف يتحول إلى تراب ولن يبعث ثانية، فيكون المؤمن قد أنهك نفسه في العبادات وأهدر ماله في الزكاة والصدقات والحج بدون أي فائدة، أما منكر وجود الإله لن يتعب نفسه بمثل هذه التصرفات العبثية من وجهة نظره، وفي النهاية يكون الموت ومن بعده العدم. لو تتبعنا شكل الحياة اليومي لكل منهما، نجد أن غير المؤمن سيكون حريصًا جدًا ألا يضيع لحظة من حياته لأنه يعلم أن كل دقيقة تمر تنقص من عمره، فكلما مر العمر يزداد صراعه لتحقيق كل طموحاته وأي عائق لذلك كالمرض أو الفقر سيجعله في حالة اكتئاب وهلع مع أنه مدرك أنه على حق في أفكاره ويشعر بالشفقة على المؤمن المخدوع بنظرية الإله والبعث، وبالنظر إلى حياة المؤمن المخدوع بفكرة البعث بعد الموت ويعيش خدعة كبيرة نهايتها العدم من وجهة نظر غير المؤمن، نجده متسامحًا أكثر مع فكرة المرض أو الفقر، فهو يعتقد أن كل ما حرم منه في الدنيا سيعوض عنه في الآخرة. هذا ينعكس على سلامته النفسية فيكون سعيدًا وراضيًا في أغلب مراحل عمره، يحضرني في هذا الموضوع فيلم أمريكي للممثل براد بيت اسمه "بنجامين بتون"، ولد هذا الشخص عكس بقية البشر عجوزًا وكلما مر به العمر كان يصغر حتى توقف عمره عندما وصل سنه إلى يوم ولادته، بسبب علم بنجامين موعد موته، دفعه هذا إلى حياة غير سوية، ترك زوجته التي اختارها والتي أحبته بشدة، وهي حامل لابنته التي لم يهتم أن يعرفها، وأخذ يتحرك في أنحاء الأرض باحثًا عن السعادة التي لم يذق طعمها، وفي النهاية وبعد سنين طويلة وجدته زوجته التي تركها في دار الأيتام لا يعي أي شيء وغير قادر على الكلام، فما كان منها إلا أن رعته حتى مات بين يديها، لعل المؤلف أراد أن يظهر الفرق بين المؤمن وغير المؤمن بطريقة عبقرية، فبينما كان بنجامين يتمتع بصحة جيدة وشكل جميل، كان يسافر إلى كل الأماكن، لم ينفعه كل ذلك وعاش تائهًا ولم يحقق شيئًا في

حياته، أما زوجته التي أصيبت وكبرت وربت ابنتها بدون أب، نجدها عاشت بسعادة ونجاح، وكانت سعيدة حتى وهي على فراش الموت، إن أهمية الدين والوجود الإلهي تتسق تماما مع طبيعة النفس الإنسانية التي تخشى المجهول والتي دوما تبحث عن الأمل والراحة ولو بعد حين، هذه الطبيعة موجودة داخل السواد الأعظم من نفوس البشر، وهي جزء من فطرتنا التي خُلِقنا بها، وبما أنها موجودة في الكل إذن لابد أن يكون واضعها داخلنا هو نفس المصدر وذلك بهدف أن نصل إليه في رحلة حياتنا. بالتأكيد هذا المصدر هو الإله الواحد الذي بعدالته أعطانا أدوات الوصول إليه باستقلال تام عن أي مؤثر خارجي.

لماذا كانت الرسالات السماوية في حيز ضيق من الكرة الأرضية؟

يجب أن ننظر إلى النتائج حتى نعلم من خلالها صحة القرارات. ومن المعلوم أن الله قد نجح ليوصل حقيقة وجوده لكل سكان العالم، وهذا يجعل قراره باختيار بقعة محددة من الأرض اختياراً موفقًا، أضف إلى ذلك أنه بالنظر إلى تاريخ الحضارات وديموغرافية الأرض، نجد أن هناك مناطق ظهر فيها حضارات ثم اندثرت تماماً، بينما استمرت حضارات أخرى كالتي جاءتها الرسالات، وهذا يحسب لصالح اختيار هذه البقعة التي نجحت في الاحتفاظ بوجودها كحضارات ونجحت في الحفاظ على الرسالات الإلهية، بل وأوصلتها إلى معظم أنحاء المعمورة.

لماذا يتدخل الخالق برسالاته على الرغم من أنه أعطى الحرية التامة للإنسان في اتخاذ قراراته؟

هذا التدخل لإعطاء معنى لحياة الإنسان وإظهار ما يجهله من حياة بعد الموت وحساباً على ما يقوم به من سلوك تجاه المجتمع، حتى يتحمل مسؤولية كل تصرفاته، وبالرغم من ذلك لم يقيد حرية الإنسان لاختيار ما يناسبه من طرق

العيش أو التفكير، لكن كان من الضروري أن يعلم الإنسان أن هذه الحياة التي نعيشها ليست هي فقط ومن بعد ذلك العدم، بل هناك امتداد لذلك.

هل الأديان خدعة؟ هل من السذاجة الإيمان بالله؟ هل المؤمنون مخدوعون في اعتقادهم الغيبي بالله؟

لو لم تكن الأديان حاجة إنسانية لما وُجِدَ إنسان مؤمن يمشي على الأرض الآن، لأن من ينكر صحة الأديان يستند إلى أنها محاولة للإنسان البدائي لتفسير الخوارق الطبيعية مثل البرق والرعد والأمطار والنار وغيرها عن طريق وجود إله يقوم بهذه الخوارق، أما بعد أن كشف العالم علة هذه الخوارق، فكان لابد للإنسان أن يتخلى عن فكرة الأديان ووجود الله، وهو ما لم يحدث في الواقع، مما يجعل الادعاء بأن فكرة وجود الإله لتفسير الخوارق هو ادعاء غير صحيح، وأن فكرة وجود الإله هي سلوك إنساني موجود في أغلب من عاش ومازال يعيش على سطح الأرض، بغض النظر عن مسمى هذا الإله عند كل ديانة. وعندما يكون السلوك الإنساني مشتركًا عند أغلب البشر، فهذا يسمى بالغريزة، وهذه الغريزة لها سبب مثل أي غريزة، فالغريزة الجنسية سببها استمرار النوع، وغريزة الجوع سببها النمو، وغريزة الإيمان سببها وجود الله، فهو أعطاها للإنسان حتى يشعر بوجوده ويؤمن به؛ وعلى المنكِرِ لهذه الحقيقة أن يفسر سبب إيمان غالب البشر بوجود الله.

حتى غير المؤمن بوجود الله لا يصل إلى سلام داخلي بإلحاده، فأغلب الملحدين يظلون لآخر وقت في حياتهم يبشرون بأن ما يؤمنون به صحيح وأن كل المؤمنين مخدوعون بالأديان، ومن المستحيل أن يكون الملحد مقتنعًا بإلحاده ويدعو الجميع إليه، بل ومستعدًا أن يخسر كل أهله وأصدقائه من أجل تكريس إلحاده لكل من حوله، وفي نفس الوقت هو يعلم أنه يضيع وقته في مهاترات فكرية وهو مدرك أن كل دقيقة من عمره تنقضي وتضيع في ذلك، وبالنسبة له بعد هذه الحياة لا شيء سوى العدم، هذا ينم عن صراع داخلي بين غريزة مفطورة فيه وبين شيء ما في نفسه يدفعه إلى التمرد على هذه الغريزة.

بالفعل إن الإيمان شيء غيبي لعلاقة بين الإنسان وربه، لكنه ليس الشيء الوحيد الغيبي، فهناك الحب، حبنا لأهلنا، لأصدقائنا، لزوجاتنا، لأبنائنا، هو إحساس لا نراه ولا نحدده ولا نعرف أسبابه، لكنه موجود رغمًا عنا لأنه غريزة فينا.

إن اتهام أغلب البشر بالسذاجة لإيمانهم بالله هو تعميم صارخ، يستوجب على من يدعيه أن يراجع نفسه في دقته، فليس معنى أن يتخذ الإنسان قراراً ما في حياته يخالف من حوله، بأن يقوم باتهامهم بالقصور العقلي أو السذاجة.

يقول الملحد بأن كل ما هو موجود لا يحتاج إلى إثبات لوجوده، فلا نحتاج إلى أن نؤلف كتبًا لإثبات وجود الشمس.

بالفعل لا يحتاج أن يؤلف الإنسان كتبًا ومجلدات ليثبت وجود الشمس وهو يراها بمجرد نظرة من النافذة، لكنه كذلك لا يحتاج أن يفكر كثيرًا في أن بدء وجودها وبدء التفاعلات التي عليها لابد أن يكون له سبب، فكما نرى الشمس بوضوح، علينا أن نتساءل عن سبب وجودها في الأساس من العدم. وبالمناسبة، لم يتوصل العلم بكافة فروعه إلى سبب علمي لنشأة الكون، وكذلك لنشأة الحياة، لكن سكان هذا الكوكب في كل الأزمنة يرون أن الله هو المنشئ لكل ما حولنا، وهو الذي وضع القوانين التي يسير عليها هذا النظام الكوني وتحافظ هذه القوانين بدورها على بقائه منذ نشأته، وحتى يكون هذا المبدأ واضحًا، علينا أن نسأل أي رب أسرة أو مسؤول في عمله ماذا يحدث لبيته أو عمله لو غاب عنه لفترة من الزمن، فما بالنا بهذا الكون الذي يعمل على مدار الزمن بدون أي خلل، وبشكل منظم؛ الإنصاف يحتم وجود إله وراء كل هذا النظام.

الأديان واللغات

يدلل الملحدون على تشابه الأديان في عمومها بأنها نقلت عن بعضها البعض في القدم، لو كان هذا الافتراض صحيحًا فلماذا لم تتشابه لغات العالم وتنقل كذلك مثلما حدث مع الأديان، ليكون لأهل الأرض لغة مشتركة يتحدثون بها؟ هذا دليل آخر على أن اللغات مصدرها البشر الذين قاموا بإنتاج وسيلة ليتفاهموا بها، كل منطقة على معزل من الأخرى، ولهذا تعددت اللغات، أما الأديان فتشابهها دليل على أن مصدرها واحد بغض النظر عن المنطقة التي جاءت منها، وبغض النظر عن اللغة التي نزلت بها.

الإنصاف مطلوب من منكري الأديان!

يقول منكروا الأديان أن الرسل ما هم إلا أناس على درجة عالية من الذكاء، استطاعوا أن يخدعوا شعوبهم ويقنعوهم بأن الرسالات التي جاؤوا بها هي من الله وأنه قد اصطفاهم لهذه المهمة، فآمن بهم الجميع ووقعوا فريسة لهذه الخديعة ولذلك يشجع منكرو الأديان البشرية على إعمال عقولها للخروج من هذه الكذبة وتَحررِهم من الخرافات.

استجابة لإعمال العقل يتبادر إلى الذهن سؤالٌ وجيه، إذا كان هؤلاء الأشخاص مدعي النبوة على باطل، فلماذا توقفت عملية ظهور أنبياء جدد منذ حوالي ألف وخمسمائة عام وحتى الآن؟ هل عقمت الأرحام على إنجاب أنبياء كذبة جدد ليستمر مسلسل خديعة البشرية كما كان قائمًا من قبل؟ فقط مطلوب رجل واحد مخادع يأتي ويثبت لنا أنه رسول حقيقي من الله، ويستغفل البشرية فيؤمنوا به، فتنتهي"أسطورة" الأديان بلا رجعة كما يزعم غير المؤمنين بها.

إذا كنا كمؤمنين مطالبين بإعمال عقولنا، فيجب على غير المؤمنين إعمال منطقهم.

ما هو الدليل المنطقي على أن القرآن كلام الله؟

بالنظر إلى القرآن نجد الآية التي تقول:

«إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9)» سورة الحجر.

هذا الوعد الإلهي في القرآن هو التحدي الأكبر الذي يضع فيه الله نفسه أمامنا، فهل نجح أم فشل؟ ببساطة بالنظر حولنا في كل دول العالم، وعند السنة والشيعة والمتصوفة والزيديين، وحتى السلفيين الوهابيين، نجد بالرغم من خلافهم وتناحرهم، إلا أنه لا توجد غير نسخة واحدة من القرآن على ظهر هذا الكوكب، تخيل أن كل طوائف المسلمين لم يتفقوا في شيء، بل كفّر بعضهم بعضًا، إلا أنهم اتفقوا على القرآن من حيث لا يدرون.

من هذا أتأكد أن من جاء بالقرآن صادق في وعده، وهذا يدعم صحة الزعم بالمصدر الإلهي للقرآن ووجود الإسلام كامتداد للأديان السابقة.

كيف أسلم المسلمون الأوائل في بدء الرسالة ولم يكن للنبي معجزات مثل الأنبياء السابقين ولم ينزل من القرآن إلا القليل؟

«وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ(89) » سورة البقرة.

بالفعل إن ظاهرة قبول نبوة محمد وإسلام من أسلم من الأوائل من قبل أن يكتمل نزول القرآن، أو حتى ينزل ما يكفي ليبني قناعة لمن أسلموا لمسألة غاية في الأهمية، خصوصًا أن النبي لم يمتلك من المعجزات الخارقة ما يؤيد نبوته كباقي المرسلين، لكن الآية المذكورة في الأعلى تكشف الستار عن هذا التساؤل.

هذه الآية توضح أن اليهود كانوا يعلمون بمجيء نبي في هذه البقعة من الأرض، وهذا أحد سببين لانتقالهم للعيش في جزيرة العرب، أما السبب الآخر فهو الإيذاء الذي تعرضوا له من الرومان في الشام، وهدم هيكلهم في بيت المقدس، فالمنطق

أن يهاجروا إلى أماكن أكثر حضارة أو خضرة، بدلاً من العيش في الصحراء مع العرب البدو.

فكانوا يحدثون العرب الوثنيين بقدوم نبي، وانتشر هذا الأمر بين كل سكان المنطقة، وكان هذا السبب الرئيسي لقبول رسالة النبي من الذين آمنوا بها، من قبل نزول آيات كافية عليه، لكن كعادة اليهود مع من سبق من المرسلين أنهم كانوا يعادونهم ويرفضونهم. كذلك فعل جزء مع النبي محمد، والجزء الآخر أسلم مع العرب، كذلك فعلوا مع سيدنا المسيح، فقد علموا بمجيئه وانتظروا قدومه، وعندما جاء بالحق الذي ليس على هواهم رفضه قسم منهم وآمن القسم الآخر.

نظرية التطور والأديان

تشكل نظرية التطور صراعًا كبيرًا بين المؤمنين بالأديان وغير المؤمنين بها، فبينما تقول بعض كتب التراث أن عمر آدم على الأرض لا يتجاوز عشرات الآلاف من السنين على أبعد تقدير، نجد أن عمر الإنسان من خلال العلم يشير إلى وجوده منذ ما يفوق المليون ونصف عام، وقد تأكد ذلك من خلال الحفريات المكتشفة، ومن خلال الكشف بالنظائر المشعة، لتحديد عمر الحفرية، مما لا يدع مجالا للشك في هذا الأمر، واستخدم البعض هذا الأمر كوسيلة للتشكيك في مصداقية الأديان وصحة نسبتها إلى الله.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه، هل هذا يتعارض مع الدين؟ وهل ترك القرآن إشارة هامة مثل هذه بدون أي ذكر؟ بالنظر لهذه الآيات من سورة البقرة

«وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ (30)» سورة البقرة

يتضح لنا حقيقتان، الأولى هي أن آدم سيجعله الله خليفة، ومن المعلوم أنه لكي يكون الشخص خليفة، لابد أن يكون هناك بشر ليكون عليهم كذلك. وفي هذا دلالة على وجود بشر أو ما يشبههم في الخلقة على الأرض، يؤكد ذلك تساؤل

الملائكة عندما قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء. وفي ذلك دلالة على استهجان الملائكة للجانب السلبي لشخصية الإنسان، والتي لا تتوافر عند الملائكة، كونهم مسيرين للصواب. هذه إشارة واضحة لوجود الإنسان كمخلوق على الأرض قبل وجود آدم، فلو كانت المخلوقات التي سبقت آدم هي من الجن فقط كما ذكرت بعض الروايات، لما كان للملائكة أن تبدي أي تعجب من خلافة آدم، لأنه ببساطة مخلوق آخر غير المخلوقات الموجودة على الأرض، لكن ردة فعل الملائكة تؤكد تشابه الخلقة الظاهرية بين آدم وبين المخلوقات التي سبقته، خصوصًا وأن الملائكة لا تعلم الغيب حتى تُخْبِر بشيء لم يعاينوه مسبقًا.

«وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (33)» سورة البقرة.

هنا يتأكد للملائكة أنهم لم يكونوا على حق في اعتقادهم بأن آدم مثل المخلوقات السابقة، لأن الله عز وجل قد ميز آدم عنهم بالعلم والمعرفة التي أعطاها إياه، فأكسبه ما لم يملكه نظراؤه في الخلقة شكلاً، فأقر الملائكة لله بأن علمهم لا يتجاوز ما قد علمهم به. إذن يتضح بأن أمر آدم قد تشابه على الملائكة بسبب خلقته الخارجية المشابهة لأقرانه السابقين، فجعلهم ذلك يظنون بأن سلوكه سيكون مشابهًا لمن يشبهونه في الخلقة الخارجية، لكنهم كانوا مخطئين لأن آدم قد ميزه الله عن البقية بالعلم والمعرفة، وهذا ما جعله مختلفًا عنهم ليستحق أن يكون خليفة في الأرض عليهم، وقد يقول قائل "ليس معنى خليفة أن يُستخلَف على بشر، بل أن يُستخلَف في الأرض ليعمرها"، ونحن نرد على هذا من القرآن ذاته:

«يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ (26)» سورة ص.

هنا يرد ذكر خليفة في القرآن لسيدنا داوود، والذي يشترك مع آدم وكل الأنبياء بأنهم بعثوا للبشر، فكلمة خليفة توجب لغوياً وجود مخلوفين، فلا خليفة بلا مخلوفين، والذي يدعم هذا الكلام هو رد الملائكة الذي يقطع باليقين المعنى اللغوي لكلمة خليفة المستخدم في الآية الثلاثين من سورة البقرة كما ذكرنا.

الآن، لننظر إلى هذه الآية:

«إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33)» سورة آل عمران.

كذلك نجد في هذه الآيات بأن آدم مثله مثل أنبياء آخرين قد اصطفاه الله على العالمين، ولكي يتم اصطفاء شخص ما لابد أن يكون هناك آخرين ليتم اختياره منهم. وهذه إشارة أخرى في القرآن لوجود الإنسان أو ما يشبهه قبل سيدنا آدم سلام الله عليه.

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ من صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (26) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ من قَبْلُ من نَّارِ السَّمُومِ (27) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (28)» سورة الحجر.

هذه الآيات تبين الفرق في الخلقة بين الإنسان والجن، فالإنسان خلق من طين والجن خلق من نار من قبل خلق الإنسان؛ فالمنطق يشير إلى تباين في خلقة كلاهما، وفي الآية التي تليها مباشرة يوضح الله عز وجل أنه خلق آدم من طين كذلك، وعندما رأت الملائكة آدم لاشك أنهم فهموا مباشرة أنه يشبه في خلقه الإنسان وليس الجن، لأنهما لا يشبهان بعضهم البعض. هذا إلى جانب أن الجن يعيش في عالم غير مادي بخلاف البشر، وآدم عليه السلام كان خليفة في الأرض المادية التي نعيش عليها. ولو سلمنا بأن الأرض لم يكن عليها غير الجن فقط، فلا يمكن أن نقول بأنهم جميعاً مفسدون في الأرض ويسفكون الدماء. يقول تعالى:

«وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (11)» سورة الجن.

فمنهم الصالحون ومنهم المفسدون، مثل الإنسان تماما كما يخبرنا القرآن. وبالنظر إلى دقة الوصف القرآني نجد أن لفظ "يسفكون الدماء" يرتبط بالإنسان وليس الجن، لأن الدماء هي جزء من المكون الإنساني ولا يشترك معنا الجن في هذا الأمر، وهذا كذلك يرجح كفة الوجود الإنساني قبل خلق آدم عليه السلام. وبإعادة النظر في الآيات السابقة مرة أخرى:

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ من صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (26)وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ من قَبْلُ من نَّارِ السَّمُومِ (27) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (28)» سورة الحجر.

نجد أن الله عندما خلق آدم أطلق عليه بشرًا، لكن الخلق الآخر الذي سبقه أطلق عليه إنسان، وكلاهما خُلِقَا من صلصال من حمأ مسنون، وهذا مؤشر آخر للتشابه الظاهري بين آدم وأسلافه السابقين، وهو الذي دفع الملائكة للربط ما بين سلوك السابقين والسلوك الذي توقعوه من آدم. إن دقة الألفاظ القرآنية بين كلمة الإنسان وكلمة بشر، تجعلنا نفهم أكثر أن الاختلاف بين آدم البشر وبين الإنسان الذي سبقه هو اختلاف سلوكي، والذي يؤكد ذلك أن الكشوفات العلمية تشير إلى أن الإنسان القديم كان بدائي التفكير ولا يرقى لنا كبشر من ذرية آدم عليه السلام، وهو ما يفسر لنا لماذا عاش الإنسان مئات الألوف من السنين من دون أن يؤسس أي شكل من الحضارة، لكن ظهور آدم كان إيذانا ببدء مرحلة جديدة في البشرية وهي مرحلة الحضارات الإنسانية التي امتدت إلينا. إذن نخلص إلى حقيقة مهمة وهي أن الكشوفات العلمية التي تشير إلى وجود البشر منذ أكثر من مليون ونصف عام، لا تتعارض مع خلق آدم أبو البشر عليه السلام الذي ظهر لاحقًا في الوجود الإنساني على الأرض ليكون خليفة عليهم، ويكون رائدًا لبدء مرحلة جديدة في تاريخ الإنسانية وهي ظهور الحضارات والثقافات والتشريعات، وهذا الأمر يعطي دلالة واضحة على مدى صحة القرآن ككتاب من مصدر إلهي، بشكل لا يقبل النقاش، بل ويشجعنا كمؤمنين بقدسية هذا الكتاب أن نعلن بكل جرأة واعتزاز أنه يأتي متوافقًا مع ما جاء به العلم في هذا الإطار تحديدًا.

التطور حقيقة وهو موجود حولنا بالفعل ولا يمكن إنكاره. فمثلاً لو قارنا بين الأمريكيين من أصل أفريقي وسكان أفريقيا الحاليين من ذوي البشرة السمراء، نستطيع أن نرى التطور الذي من الممكن أن نفهمه، سواء في طبيعة البنية الجسدية أو الشكلية أو حتى السلوكية لهم، لكننا لا نزال نتحدث عن نفس النوع وهو الإنسان، وهذا ينطبق على أسلافنا الأوائل من الهومو إيريكتس (الإنسان المنتصب) والهومو هابيليس (الإنسان الماهر) والهومو سابينز (الإنسان العاقل)، وغيرهم من الأسلاف الإنسانية حسب تصنيفهم العلمي، فالتغير شكلي وليس نوعي. وكمثال آخر، لو أنجبت أسرة ما في الأزمنة البدائية أطفالاً في بيئة قارصة البرودة، فقط الأطفال التي تمتلك مناعة أقوى ضد الأمراض الوراثية التي تنجم عن البرودة هي التي ستعيش، والباقي لن يعيشوا. وعندما يتزاوج الجيل الجديد، ينجبون أطفالاً لديهم فرصًا أكبر للعيش، وهكذا نحصل تدريجيًا على إنسان بجهاز مناعي أقوى، وكمثال الربو، لم يستطع مريض الربو أن يتحمل البرودة الشديدة في الماضي. فكان الأطفال الأصحاء هم من يعيشون وذلك لعدم وجود طب أو دواء بالشكل الحالي. فمع الأجيال تتنحى الصفة الوراثية الخاصة بالربو، وتأتي أجيال خالية منه. أتصور أن التطور المقبول هو الاحتفاظ بالصفات الوراثية التي تلائم الكائن ليتكيف مع البيئة التي يعيش فيها، مع الاحتفاظ بالنوع وعدم تغيره، والغريب في الأمر لمن يجزم بأن الإنسان تطور من سلف مشترك مع القردة هو أن الإنسان بشكله الحالي موجود منذ ما يفوق المليون ونصف عام، ولم يتطور مطلقًا من نوع إلى آخر، فلماذا توقف تطور الإنسان إذا كان التطور لا يزال قائمًا، أليس المنطق أن يستمر التطور بلا توقف، ولو كان تطورًا مصغرًا، الإنصاف مطلوب، وإلا فإننا ملزمون أن نتساءل لماذا توقفنا عن التطور منذ كل هذه الأزمنة؟ تقول نظرية التطور أن هذا السلف المشترك الذي أصله نوع من القرود، قد حدث له طفرات جينية أدت إلى ما نحن عليه منذ أكثر من مليون ونصف عام؛ فكان من الطبيعي أن يستمر التطور لنصبح نوعًا آخر غير الإنسان. وقد يقول قائل أن المدة غير كافية لحدوث طفرة نوعية، فعلى الأقل لتكون هذه النظرية منصفة أن يحدث تطور في قدرات الإنسان البيولوجية. مثلاً أن يستطيع الإنسان الذي يسكن بجوار البحر أو في الجزر أن يعيش تحت الماء مدة أطول بشكل ملحوظ من الإنسان العادي. أو أن يتغير

الجهاز الهضمي لسكان الصحراء لقلة الطعام ويقترب من الجهاز الهضمي للجمال مثلا، والتي تقدر على الصمود لفترة طويلة بدون طعام أو ماء بسبب سنمها. وهذا كله لم يحدث في كل هذه الأزمنة. كذلك هناك تساؤل يطرحه المؤمنون بنموذج تطور الإنسان من نوع آخر من الكائنات الحية، وهو أن للإنسان أعضاء في جسده ليست ذات أي وظيفة بيولوجية، مثل ضرس العقل، الزائدة الدودية، عضلات الأذن، عظمة العجز، فيستشهدون بأن هذه الأعضاء دليلاً على تطورنا من نوع آخر، كانت هذه الأعضاء ذات فائدة له. إذا كانت هذه الأعضاء بلا أي وظيفة بيولوجية، فكان من الأحرى أن تضمر وتندثر على مر أجيال الإنسان، لا أن تبقى بلا وظيفة بيولوجية حتى الآن. لقد مر على الإنسان أكثر من مليون ونصف عام، ولا تزال هذه الأعضاء موجودة. وفقًا لهذا المنطق كان من المفترض أن لا يفقد الإنسان ذيله من أسلافه مثلاً، وكان الذيل سيبقى بلا أي وظيفة مثله مثل باقي الأعضاء التي لم تختفِ على الرغم من عدم وجود وظيفة لها؛ هذا يجعل التطور بالشكل المتعارف عليه فجوة علمية كبيرة حقيقةً. لأنها لا تعدو أكثر من فرضية غير قابلة للتجربة أو حتى الإثبات.

نخلص كذلك بأن الدين والتطور لا يتصادمان، خاصة في مسألة بدء خلق الإنسان، وكل ما حدث بعد خلق الإنسان على الأرض هي مسألة تركها الدين للعلم بشكل كلي، في إشارة واضحة في قوله تعالى:

«قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20)» سورة العنكبوت.

فالإنسان هو المطالب بالاجتهاد والبحث، للوصول لنشأته منذ خليقته إلى جانب كافة جوانب حياته، وبالرغم أن هذه وصية إلهية مباشرة، إلا أننا حينما ننظر إلى واقعنا نجد أن علماء الغرب هم من أخذوا على عاتقهم هذه المهمة، فنجد أن كافة الكشوفات التاريخية الإنسانية قد جاءت من خلالهم، فلولا ما توصلوا إليه لما كنا عرفنا الكثير من الإشارات العلمية التي أوردها الله في كتبه السماوية.

لنقم بتدبر آية أخرى في غاية الأهمية، يقول تعالى:

«انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلا (48) وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (49) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) » سورة الإسراء.

هنا يخبرنا الله باستنكار الذين لا يؤمنون به ولا باليوم الآخر لفكرة البعث من جديد للحساب، فكيف يرجع الجسد والعظام مرة أخرى بعد أن أصبحت ترابًا ورفاتًا، فكل ما يعلموه أن الإنسان يتحلل تمامًا بعد دفنه بفترة، فيأتي الرد الإلهي عليهم بأنه إذا لم تصدقوا بالبعث بسبب تحلل الجسد تمامًا مما يستحيل استعادته، فسيجعل الله أجسادًا بشرية من الحجارة أو الحديد، ليكونوا آية وعبرة لمن يكذبون بلقائه، فمهما مر عليهم من مئات الآلاف من السنين فلن يتحللوا أو يصبحوا ترابًا، بل سيظلون باقين إلى يوم البعث. لكن ما المقصود بهذا الأمر؟ فمنذ أن نزلت هذه الآيات وحتى زمن قريب، كان الناس يقرؤون هذه الكلمات ولا يتوقفون عند معانيها، لكن في عصرنا الحديث نستطيع أن نربط بين هذه الكلمات والواقع، لأنه بكل بساطة تشير هذه الآيات إلى الحفريات، والتي اكتشفها الإنسان حديثًا أثناء التنقيب في الأرض. والملفت للانتباه أن هذه الحفريات تكونت بفعل الترسب البطيء لمكونات التربة التي دفن فيها جسد الكائن الذي مات، فإما أن يتحول الجسد إلى حجر أو يتحول إلى معدن حسب محتوى التربة من صخور أو معادن وأملاح. الإنصاف يدفعنا إلى أن نؤمن أن ذكر هذا الأمر في القرآن لا يمكن أن يكون مصادفة مطلقًا، وفكرة أن هذا الأمر قد كشف عنه في عصرنا الحالي يدعو أي شخص متشكك في مصداقية القرآن ونسبته إلى الله أن يعيد حساباته من جديد.

الخط الزمني الإنساني

وفقًا للنشرات العلمية تشير الحفريات إلى أن الإنسان عاش على الأرض منذ فترة طويلة، فهناك دراسات تُقدِّر أن الإنسان الحديث عاش على الأرض منذ مائتي ألف عام وحتى مليون ونصف العام، وعمر الأديان والرسالات حوالي سبعة آلاف

سنة، لماذا ترك الله الإنسان أغلب حياته في الماضي بلا أديان؟ وفي الحاضر بلا أنبياء؟

بالنظر إلى الخط الزمني لحياة الإنسان على الأرض، نجد أنه منذ البداية قد استقر في وجدانه فكرة وجود خالق لكل ما حوله، فكما نعلم جميعا أن وجود الإنسان في هذه الحياة يصل إلى المليون ونصف عام على حسب الحفريات التي توصل إليها علماء التنقيب والجيولوجيون، وبالطبع المعلومات المتوافرة في البدايات الإنسانية غير كافية للاستدلال على تفاصيل دقيقة، لكن ما هو مؤكد أن الإنسان استطاع الإيمان بوجود إله دون رسل أو أنبياء أو ما شابه ذلك، وقد عرضت في كتابات سابقة أن هذا الإيمان يرتقي إلى مستوى السلوك الغريزي، لأنه مع اختلاف أماكن سكن البشر في القارات وعدم قدرتهم على التواصل نظرا لحياتهم البدائية، إلا أن الملفت للانتباه أن ظاهرة الإيمان بخالق قد تفشت بين كل سكان المعمورة، هناك من يرد على هذه الظاهرة بأنها ما يطلق عليه إله الفجوات، أي أن الإنسان عندما يعجز عن تفسير الظواهر الطبيعية، يرجئ ذلك إلى قوة أو إله ما، لكن هذا الكلام مردود عليه بأنه لو كان هذا السلوك في مجموعة أو مجموعتين أو حتى مائة تجمع بشري لكان من الممكن تقبل ذلك، أما أن يكون سلوكًا عامًا لكل البشر، فهذا يدل على الغريزة بلا شك.

عندما بدأت حياة الإنسان بالتطور، وبدأ العيش في مجتمعات عمرانية منظمة، لتشكيل ما يعرف بالحضارات، بدأت كذلك الرسالة الإلهية تأخذ شكلاً أكثر تطوراً لمواكبة الشكل الحضاري للإنسان، فكان ذلك إيذانا ببدء الرسالات والأديان، وذلك لتأكيد وترشيد ما كان يؤمن به أهل الأرض في الأساس، فعندما جاءت الرسل، كان بالفعل أقوامهم يؤمنون بالإله، فلم يكن اعتراضهم على فكرة الإله بحد ذاتها، بل كانت المشكلة تكمن في رفض الكثير من البشر لفكرة أن يقوم شخص ما بالمجيء برسالة، إما استكباراً لرفض رسول بعينه، أو عدم الرغبة في اتباع قانون ما أو تعليمات ما، هذا في النفس البشرية، فالكثيرون منا لا يريدون أن يعيشوا بنظام وأن يفعلوا ما يحلوا لهم ولو على حساب الغير، فكان أمر الأنبياء والرسالات قفزة تطورية في الخط الزمني الإنساني، ثم توقفت الرسالات

الإلهية وختمت بعد وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وأصبح الاحتياج للأنبياء غير ضروري، ببساطة لأن الله قد أتم كلمته وتشريعاته للبشرية.

إذن وصلنا إلى أن مرحلة الأنبياء قد انتهت وكذلك الرسالات، ولم يبق معنا إلا الكتب التي تركت من خلال الأنبياء، لكن بانتهاء زمن الأنبياء الذين توافق ظهورهم مع ظهور الحضارات، بدأت مرحلة جديدة في الخط الزمني الإنساني وهي زمن النهضة العلمية. نعم لقد تغير تماماً، ارتقى شكل ونمط حياة الإنسان، أصبح قادراً على تذليل كل الصعوبات التي لم يستطع أسلافه تخطيها لمئات الألوف من السنين.

إن مع ظهور العلم حدث ظهور جديد لما كان حولنا مما خفي من الأشياء، موجات كهرومغناطيسية، أشعة تحت الحمراء، تفاعلات كيميائية، كشوفات جيولوجية، تقنية حديثة.. إلخ؛ كل هذه الاكتشافات بنيت على العلم، وهذا العلم بني على نظريات، وهذه النظريات بنيت على معادلات، وهذه المعادلات لا تتغير مهما تكررت؛ هذا دليل على أنها محكومة أو مجبورة على ذلك، يرى المجتمع العلمي أن الاضطرار التكراري للمعادلات العلمية يشير إلى نظام متطور يهيمن عليها ويحكمها لتستمر في ثباتها النتائجي، هذا الاضطرار يشير إلى وجود قوة أو شيء وراء كل ذلك، هذه القوة أو الطاقة هي ما نسميه بالإله.

إذن زمن النهضة العلمية الإنساني قد استبدل الأزمنة السابقة، ليشير بوضوح إلى عدم عشوائية الكون كما ظن الكثيرون قبل انهيار نظرية الانفجار الكبير التي أصبحت عبئًا حقيقيًا على الفيزياء الكمية Quantum physics وقوانين الديناميكا الحرارية Thermodynamics laws والتي تحدثنا سابقًا عن علاقتها الوثيقة بوجود خالق لهذا الكون، وهذه ببساطة إشارة إلى أن وجودنا ليس عبثيًا.

إذن لا يستطيع منصف أن يقول أن الله ترك الإنسان بدون أن يدله على وجوده، لكن بتتبع الخط الزمني الإنساني نجد أنه كلما تطور الإنسان، طور الله الطريقة التي يتواصل بها معه، وهذا من بديهيات الحكمة والعدالة.

في النهاية، لا أستطيع القول أن هذه الأفكار تحمل الإجابة على تساؤلات كل من عنده أسئلة أو شكوك، لكنها قد تعطي أسلوبًا جديدًا في التفكير واستخدام العقل للتوصل لما قد يبدو غامضًا لبعضنا، فمن الصعب أن تقنع إنسانا بفكرة ما، لكن من الممكن أن تعطيه الوسيلة لكي يقنع نفسه ويصل للكثير من التفسيرات للتساؤلات التي تشغل باله، خصوصًا أن آلية التفكير ليست حكرًا على أحد، بل هي حق مشروع للجميع، كذلك أريد أن أوضح أنه ليس كل ما هو مقنع لشخص يكون مقنعًا لآخر، فنحن البشر لا نختلف فقط في أشكالنا، ومعتقداتنا وأذواقنا، بل نختلف كذلك في نظرتنا لنفس الأشياء مهما بلغت بساطتها، فعندما ينظر مجموعة من الناس إلى برتقالة، ويطلب منهم ما يخطر ببالهم، تجد أن لكل واحد منهم فكرة متميزة، البعض يفكر في لونها، أو حجمها، أو طعمها، أو سعرها أو غير ذلك أو بعضه أو كله، فكما أبدع خالقنا في اختلافنا في كل شيء، وصل إبداعه لاختلاف طرق تفكيرنا، وبالتالي يختلف فهمنا لكل ما حولنا بما في ذلك فهمنا لحقيقة الله، ليس معنى أن لديك أسئلة أو أفكارًا مختلفة أنك شخص غريب أو فيك عيب ما، لكن هذا دليل على أنك إنسان فريد مثلك مثل كل من حولك، لكن يبقى أن تستخدم عقلك كي تجيب عن كل ما يشغل بالك، وأن تبحث عن الإجابات في كل ما هو حولك، فهذا هو التحدي الحقيقي.

الفصل الرابع

نظرة تدبريّة للقرآن

مقدمة

من المفترض أن لا تصل إلى هذا الجزء لو لم يكن الجزء السابق قد رسّخ قناعة ما لديك بمسألة وجود إله، فإن لم تجد ما سبق مقنعًا لعقلك ولو بنسبة خمسين بالمائة، فلن يكون هذا الجزء ذا أهمية لك، أما لو قررت الاستمرار في القراءة، فهذا يعني أنك على يقين بوجود إله لهذا الكون، مسؤول عن كل ما يحدث فيه من أحداث وتغيرات، يعلم ما سوف يحدث وما لن يحدث، لكن يبقى سؤال قد يتوارد إلى البعض، أليس من الطبيعي أن يريد هذا الإله أن يخبرنا بشيء ما؟ أو أن يطلب منا بعض الأمور؟ أو يعلمنا ما قد يكون مفيدًا لنا في أي مرحلة من حياتنا؟ أو أن يخبرنا بمصيرنا بعد هذه الحياة؟ من المؤكد أن هذا هو التساؤل المنطقي عند أي شخص مؤمن بوجود خالق، عندما ننظر حولنا نجد أن الكثير من الشعوب تؤمن بوجود الله ولكن لكل منهم ديانة أو عقيدة مختلفة، والكل يرى أنه على حق، إثبات من هو على حق من عدمه مسألة جدلية تؤدي إلى تعميق الخلافات بين الناس ونشر العداء بينهم، خاصة إن لم تعرض بشكل يحترم مشاعر الآخر، وعن طريق من هو متخصص في هذا الشأن، ولذلك أنا أعف قلمي عن أن أدخل في هذا الشأن، وأكتفي بأن أعرض ما أراه صحيحًا من وجهة اعتقادي مع عميق احترامي لكافة المعتقدات الأخرى.

أعود إلى السؤال الذي طرحته في البداية، هل كلم الله البشر؟ الإجابة هي أن الله قد كلم البشر في العديد من الرسائل التي أنزلت على بعض البشر الذين اختارهم، وكان آخر هذه الرسالات القرآن الكريم الذي اختار الله له رجلاً اسمه محمد ابن عبدالله ليبلغ كلامه لنا، لكن ما هو الدليل أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو من عند الله، هناك المئات من الكتب التي تتكلم عن دلائل نبوة محمد، وصحة القرآن، لكن أكثر ما أعجبني هو بحث قام به الدكتور جاري ميلر أستاذ الرياضيات وعلم المقارنة بين الأديان، حيث شعر بعد قراءته للقرآن أن فيه ما يدل على الخطاب الإلهي وأن محمدًا ما هو إلا شخص اختاره الله ليقوم بإيصال رسالته للبشرية بحذافيرها.

مشكلة تطبيق العقل

يُواجَه معظمنا بأسئلة الأطفال عندما يكررون نفس الكلمات مرارًا وتكرارًا، ومن الممكن أن يكون هذا الأمر في غاية الإحباط مع تكرار الأسئلة وكلمة "لماذا"، فلو وضعت سكينًا بعيدًا عن متناول يد طفل، يريد أن يعرف لماذا؟ وعندما تخبره بأن السكين حادة يقول لماذا؟ فتقول حتى تقطع بها الفاكهة، فيسأل لماذا؟ وهكذا يمضي الحوار، وهذا يوضح مشكلة تطبيق العقل فما يجب فعله عندما نستخدم العقل هو أن نضع معاييرًا لإثبات الشيء الذي يدرس، فيجب أن نقرر بأنفسنا ماهو الذي يجب أن نتوصل إليه حتى نصل إلى حد الرضا عن صحة ما يتم دراسته فنصل إلى نتيجة نهائية، لابد أن يكون هذا هو القرار الأول الذي نتخذه للوصول إلى قناعة ما، ومع ذلك مايحدث في الأمور الفلسفية، أن يقوم بعض المفكرين بوضع معايير لإثبات نظرية ما، ثم يدرسون الموضوع وفي النهاية قد يصلون إلى معاييرهم التي وضعوها فتكون النظرية قابلة للإثبات، ولكنهم يبدؤون بالسؤال عن إثبات لهذا الإثبات، وهذا يخالف المعايير التي ارتضوها في بدء بحثهم.

وضع المعايير

المفتاح لتجنب أي عدم اقتناع لا نهائي هو الاقتناع أولا بالمعايير الموضوعة، الاقتناع بأن هذه المجموعة من المعايير عبارة عن قائمة من الشروط التي تؤدي إلى إثبات النظرية المفترضة إثباتًا لا رجوع فيه، وعلى وجه الخصوص سأقوم بتطبيق هذا المبدأ على القرآن، لو سألنا أحد مفكري المسيحية، لماذا هو مسيحي؟ غالبا ما سوف يرد علينا بمعجزة قيام المسيح، ويقوم أساس هذا الاعتقاد على أنه منذ حوالي ألفي سنة كان هناك رجلًا قد مات ثم قام ثانية من الموت، وهذه هي معجزة هذا المفكر المسيحي وهي أساس اعتقاده، وعليها يبني كل شيء آخر، وعندما نسأل المسلم عن معجزته ولمَ هو مسلم وأين هي معجزته؟ فيقوم المسلم بإحضار معجزته من على رف مكتبته ويعطيك إياها، لأن معجزته مازالت موجودة معنا حتى اليوم، إنها القرآن.

علامة من الله

نعلم أن جميع الأنبياء جاؤوا بعلامات من الله أو ما نسميه بالمعجزات، فاستطاع موسى عليه السلام أن ينافس سحرة فرعون، وقام المسيح بعلاج المرضى وإحياء الموتى، وأعطيت علامة لآخر الأنبياء، وهذه العلامة طبقًا لعقيدة المسلمين هي القرآن، ولا تزال هذه العلامة موجودة معنا حتى اليوم، ألا يكون هذا عدلًا بعد كل ماسبق؟ فإذا كان للنبوة أن تنتهي فمن العدل أن يقوم آخر الأنبياء بترك شيء يبقى معنا، وذلك حتى يكون ممكنـًا للمسلم الجاد في هذا الزمن أن لا يشعر بعدم المساواة مع المسلمين الذين عاشوا منذ أربع عشرة قرنًا، هؤلاء الناس الذين رافقوا الرسول صلى الله عليه وسلم، لم يكن لديهم مصدراً للمعلومات الضرورية أكثر مما لدينا الآن، كان عندهم القرآن وكان علامة لهم، كذلك هو علامة لنا اليوم، أي نفس المعجزة لا زالت موجودة، إذن فلنقم باختبار القرآن.

لنفرض أني قلت لرجل":أنا أعرف أباك"، غالبًا سوف يدرس الموقف ويرى إن كان محتملا أني قابلت أباه، فإن لم يكن مقتنعًا سيبدأ بطرح أسئلة مثل، "أنت تقول أنك تعرف أبي، هل هو رجل طويل؟ هل شعره مجعد؟ هل يلبس نظارات؟"، وهكذا، فإذا استمريت في إعطائه الإجابات الصحيحة لأسئلته كلها، فسوف يقتنع بما أقول، "حسنًا، أعتقد أن هذا الرجل قابل والدي كما يقول"، هل ترى الطريقة المتبعة؟

اتخاذ قرار

على كل إنسان أن يكون ملتزمًا بشيء ما، يجب أن تضع قدمك في مكان ما، فمن المستحيل أن يكون الإنسان محايدًا طيلة الوقت، من الواجب أن يكون لأي فرد عاقل نقطة مرجعية في حياته، لابد من اتخاذ قرار أو موقف في مرحلة ما، حتى تضع قدمك في المكان الصحيح من ما هو حولك، وحيث أنه لا يوجد شيء اسمه إثبات للإثبات ومن ثم إثبات لهذا الإثبات، وهكذا، فحتى يتيسر السبيل لوضع

القدم في مكان ما لاتخاذ قرار أو موقف، يجب أن نبحث عن هذا المكان الذي نخطوا فيه، وهذا عن طريق الوسيلة التي أرجو أن أنجح في إيضاحها فيما يلي.

السؤال هو البحث عن نقطة التقاء لمجموعة من الأمور المختلفة، فنبحث عن الحقيقة في عدة أماكن، يكون مقياسنا في النجاح للوصول إلى الحقيقة هو أن هذه الأماكن المختلفة تلتقي جميعها في نفس نقطة الالتقاء بلا استثناء.

فلو كنا نختبر كتاباً، باحثين فيه عن محتوي إلهي، وأدي ذلك إلى الإسلام، فيكون هذا مساراً واحداً.

في نفس الوقت إذا اختبرنا كلام من يُطلق عليهم أنبياء، وأدى ذلك إلى الإسلام، فيكون هذا مدعماً أكثر لما نقوم به، حيث أننا بدأنا البحث عن الحقيقة في مكانين مختلفين ووجدنا أنفسنا نتجه نحو نفس نقطة الالتقاء.

لا يستطيع المرء إثبات كل شيء، فيجب أن نتوقف عند نقطة ما نشعر عندها بالرضاء أو الاقتناع بمعاييرنا كما ذكرت سابقًا، المقصود هو أنه حتى نستطيع اتخاذ موقف أو قرار لنا حتى نكون متأكدين أننا في المكان الصحيح، يجب أن نختبر كل الأدلة الموجودة حولنا ونرى أين تقودنا ونصل إلى "نقطة الالتقاء"، فنقول أن كل الأدلة تؤدي إلى هذه النقطة، وعندئذ نذهب إلى هذه النقطة وننظر إلى المعلومات الموجودة فيها ونرى مدى توافقها، ونسأل أنفسنا: هل تبدو الآن الأمور واضحة؟ هل المكان الذي وضعنا فيه أقدامنا هو المكان الصحيح؟

السماوات المتمددة

دعوني أولًا أظهر نماذج أخرى لاختبار القرآن، وكذلك نختبر بعض كلمات الأنبياء حتى نرى إمكانية الوصول إلى"نقطة الالتقاء"، في سورة الذاريات الآية رقم (47)، مذكور أن السماوات تتمدد وتتسع.

« وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ» سورة الذاريات (47).

و هو ما أكده العلم الحديث بأن الكون ليس شيئًا ثابتًا، بل هو في تمدد دائم ومستمر، لكن الملفت في هذا الأمر هو كيفية تعامل المسلمين القدماء مع مثل هذا النص القرآني، فبالرغم من عدم فهمهم لهذه الكلمات، إلا أنهم احترموها ونقلوها كما هي بدون حذف أو تعديل لما ليس لديهم تفسير له، وكان ردهم في الإجابة عن ما هو مجهول لهم بأن الله أعلم، فكانوا يؤمنون بأن السماء تتمدد لكنهم لم يتصوروا كيفية حدوث ذلك.

مدينة "إرم"

يذكر القرآن مدينة باسم "إرم" في سورة الفجر الآية رقم (7)، كانت مدينة" إرم" مجهولة بالنسبة للتاريخ، كانت مجهولة لدرجة أن بعض المؤرخين المسلمين كانوا يشعرون بالحرج الشديد لعدم توفر أي أدلة على هذه المدينة، وكانوا يأسفون كثيرًا لدينهم حتى أنهم ذهبوا إلى أن ذكر مدينة" إرم" في القرآن كان شيئًا تشبيهيًا، وأن" إرم" كانت على الأرجح اسمًا لرجل لا لمدينة.

في عام 1973 أثناء البحث في موقع مدينة "إيبلوس" القديمة الواقعة في سوريا، تم اكتشاف أكبر مجموعة من الألواح الطينية المكتوب عليها بلغات قديمة جدًا، وقد وجد أن الألواح التي عثر عليها في هذه المدينة تعود إلى أكثر من أربعة آلاف عام وهي أقدم من كل الكتابات التي وجدت في مواقع أخرى.

سوف تجد تفاصيل هذا الاكتشاف في مجلة "ناشيونال جيوجرافيك" عدد ديسمبر لعام 1978، صفحة (730 – 736)، وما هو مثير للدهشة أن هذا الاكتشاف أكد وجود مدينة "إرم"، حيث كان أهل مدينة "إيبلوس" يقومون بالتجارة مع أهل"إرم"، وذكروا في الألواح هذا الأمر.

إذن في عام 1973، يأتي تأكيد أنه بعد كل هذا الزمن تم التوصل لوجود مدينة قديمة بهذا الاسم، والسؤال الذي يطرح نفسه، كيف لهذه المعلومة أن تكون مذكورة في القرآن؟

بعد كل هذا الزمن ظهر التفسير لوجود هذا الاسم، الذي طالما كان مصدراً للقلق بالنسبة للمسلمين قبل هذا الاكتشاف، وبهذا يتفوق مؤلف القرآن على الجميع ممن يحاولون إثبات أنه عمل بشري يعتريه الخطأ، كذلك تفوق مؤلف القرآن على المسلمين الذين طالما حاولوا إيجاد معنى لكلمة "إرم" التي لم يجدوا لها تفسيراً.

أصغر المواد

في وقت من الأوقات كان المعروف عند العرب أن أصغر وحدة للمادة على الإطلاق هي الذرة، ومن المحتمل أن العرب اعتقدوا أن الذرة كانت عبارة عن نملة أو حبة غبار، ولكن اليوم مع تطور العلم أصبح لكلمة ذرة وجود وتعريف علمي.

في هذا الشأن ذُكرت آية مثيرة للاهتمام حيث يقول الله تعالى:

«وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ» سورة يونس (61).

هذه الآية تتحدث عن مواد في حجم الذرة أو أصغر منها، قام مؤلف القرآن بالتوصل إلى أن الذرة ليست هي أصغر مادة موجودة وأن هناك ما هو أصغر منها، وهذا يضعه في موقف صعب لأنه حطم المعيار المتعارف عليه بأن الذرة هي أصغر شيء على الإطلاق، فهل بالفعل أصبح من الممكن التفوق على مؤلف القرآن الذي ذكر ما هو أصغر من الذرة؟

حتى زمن قريب كان من الممكن القول بأن ما ذكر في القرآن بوجود ما هو أصغر من الذرة هو قول خاطيء، لكن في وقتنا الحالي يصبح من اكتشف ما هو أصغر من الذرة لم يأتِ بجديد، لأن مؤلف القرآن قد سبقه منذ قرون.

المغفرة

في العودة للحديث عن التفوق على مؤلف القرآن، يرى الإسلام أنه عندما يعتنق شخص ما الإسلام، يغفر له كل مامضى من البداية، وكانت هذه الدعوة للإسلام أن يدخل الناس في الإسلام ويغفر لهم كل ماسبق، لكن هناك عدو واحد فقط لمحمد صلى الله عليه وسلم ذُكر في القرآن بالاسم وهو" أبو لهب"، وقد ذكر في سورة صغيرة، ويؤكد القرآن أن هذا الرجل سيعذب لذنوبه

« تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ(5)» سورة المسد.

نزلت هذه السورة في حياة أبي لهب، وظل حيًا لسنوات طوال بعد أن نزلت، لقد كان باستطاعته أن ينسف الإسلام بكل سهولة، كل ماكان يحتاجه هو أن يذهب للمسلمين ويعلن إسلامه معهم،كان معهم السورة التي تقول أنه سوف يدخل نار جهنم، فكان من الممكن أن يقول: "ها أنا أعلن إسلامي فهل سيغفر الله لي أم لا؟".

كان من الممكن أن يسبب لهم الكثير من التشكك في مصداقية القرآن بمجرد أن يعلن إسلامه خاصة أنهم يعلمون أن المغفرة لما قبل الإسلام جائزة للكل، إلا هذا الرجل الذي نزلت فيه السورة، وبالرغم من كل ذلك مات أبو لهب دون أن يسلم.

التنبؤات

لقد تنبأ القرآن بثقة بالغة بالعديد من الأحداث قبل وقوعها بقليل من السنين على سبيل المثال، سقوط الامبراطورية الفارسية بالرغم من انتصارها انتصارًا ساحقًا على الامبراطورية الرومانية كما في سورة الروم.

أيضًا في بداية الإسلام عندما كان المسلمون يجتمعون في غرفة واحدة، وكان القرآن يحدثهم عن النصر المستقبلي في الوقت الذي كانوا فقط يحاولون البقاء على قيد الحياة في المدينة التي يعيشون فيها.

الدليل على المصدر الإلهي للقرآن

الكثير من الناس يجب أن يقوموا بالبحث عما في القرآن للتأكد من مصدره الإلهي، لكن الطريقة العلمية المحايدة لاختبار هذا الكتاب هي أن نبحث في الأماكن التي يوجد بها دعوة للبحث، مثل الآيات التي تقول: «أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا..»، كذلك: «يَا أَيُّهَا الإِنْسَان ...»، من الواضح أن مؤلف القرآن يدعونا لاختبار الأدلة في هذه الأماكن، إذن البحث في هذه المواضع يعتبر من الإنصاف خاصةً أن مؤلف القرآن يرى أن هذه المواضع قد تساعد الباحث المنصف عن مصدر هذا الكتاب.

كل واحد منا يمتلك الخبرة في شيء ما، وليس مطلوبًا من أحد أن يكون له درجة علمية ما حتى يتدبر القرآن، فالكل يمتلك خبرة ما من المواقف التي مر بها في حياته قد توفقه لفهم شيء قد يتفق مع حقيقة ما مذكورة في القرآن.

على سبيل المثال، حدث في مدينة "تورونتو "أنه أعطيَ القرآن لرجل ليقرأه، وكان هذا الرجل من البحارة، قد أمضى جزءًا كبيرًا من حياته في البحر، عندما مر بالآية التي تصف الأمواج في المحيط.

«أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ» سورة النور الآية.(40) .

تفاجأ البحار لأنه وجد أن الوصف مطابقٌ تماما لما عاصره في الواقع، وعندما أعاد القرآن للرجل الذي أعطاه إياه سأله قائلا: "هل كان محمدٌ بحارًا؟"، بالطبع زادت دهشته عندما علم أنه أمضى حياته في الصحراء، ولذلك كان عليه أن يسأل نفسه: "من أين جاء بالمعلومات عن وصف البحر الهائج"؟

كلنا مر بتجارب وعلم حقائق وامتلك خبرات عن أمور مختلفة تصل به إلى درجة اليقين بها، وإذا تصادف وجود هذه الحقائق في القرآن، فنحن بهذا نحصل على تأكيد لإيماننا بألوهية مصدر القرآن.

ظاهرة الاثنين

هناك صديق لي من جامعة "تورنتو"، تعرف على رجل يحضر الدكتوراه في علم النفس وكان الموضوع الذي اختاره "فاعلية مناقشة المجموعة".

اقترح عددًا من المقاييس التي على أساسها يكون النقاش الفعال، وقام بعمل رسم بياني لهذه التجربة، حيث قام بقياس كفاءة كل المجموعات في أثناء نقاشهم طبقًا لمقياس قام بوضعه في رسمه البياني، فأظهر مدى التطور في مجموعات النقاش حسب حجم المجموعة.

الشيء المثير للاهتمام الذي حدث والذي لم يتوقع التوصل إليه في بدء هذه التجربة، أن هناك اختلافًا في درجة التحصيل الفهمي للنقاش لكل مجموعة منفصلة عن باقي المجموعات، حيث حصلت المجاميع المؤلفة من اثنين على أعلى التقديرات في الرسم البياني، بخلاف باقي المجاميع التي تحتوي على أكثر من شخصين، بمعنى أنه عندما يتنافس اثنان في أمر ما يكون أداؤهما هو الأعلى كفاءة عن أداء أي أعداد في مجموعات أخرى.

عندما سمع صديقي بهذا الأمر، خطر أمر ما على ذهنه، فهو كمسلم أحس أن هناك شيئًا مألوفًا في هذه الفكرة، لم يكن الباحث في علم النفس مسلمًا وكان متحيرًا في اختيار عنوان لبحثه، وأثناء ذلك وجد صديقي في نفس الليلة آية في القرآن تتحدث تحديدًا عن هذا الموضوع وعن حجم المجموعة وفاعليتها، وأن الإنسان عندما يتدارس القرآن ليتفهم معانيه من الأفضل أن يكون ذلك وحده أو مع شخص آخر فقط.

«قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» سورة سبأ الآية (46).

استخدام وذكر الكلمات

كما قلت مسبقًا كل إنسان متمرس في شيء ما أو له اهتمام أو خبرة معينة في الحياة وبالنسبة لي أنا أهتم بالرياضيات والمنطق.

هناك آية في القرآن الكريم تقول:

«الٓرٰ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ(1) » سورة هود.

هذه الآية تخبرني أنه ليست هناك كلمات زائدة أو إضافية في القرآن، وتخبرني بأن كل آية كاملة ومن ثم تم تفصيلها وشرحها، أي أنه لا يمكن أن تكون في صيغة أفضل مما هي عليه، فلا يستطيع أحد أن يستخدم كلمات أقل أو أكثر ليعطي المعنى نفسه.

المسيح وآدم

لو قمنا بربط الآية السابقة والتي تشير إلى احتواء القرآن على آيات محكمة ثم يتم تفصيلها لنا بآيات أخرى حتى نختبر هذا المفهوم، سيساعدنا هذا على التأكد من مدى مصداقية القرآن، لو قمنا بالنظر إلى الآية التي تقول:

«إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ» سورة آل عمران (59).

من الواضح أن ما عندنا في هذه الآية عبارة عن معادلة، فنجدها تشرح مدى الإعجاز في خلق عيسى عليه السلام وتكرار حدوثه في الماضي بشكل أكثر تعقيدا

مع آدم عليه السلام، حيث أن الاثنين جاءا تحت ظروف غير طبيعية على عكس من يكون له أم وأب كسائر البشر.

لكني قررت أن أبحث في استخدام هذه الكلمات وأربطها بنظرية الإحكام والتفصيل.

الكلمات مستخدمة بوضوح تام، فعيسى مثل آدم، والمقصود أن هذين الرجلين يماثلان بعضهما، لكن ماذا عن ذكر الكلمات؟ هل كان القرآن على دراية بحقيقة أنه لو أخذنا في الاعتبار الكلمات بمعناها الحرفي، أي أن كلمة "عيسى" تساوي كلمة "آدم" لوجدنا عدد حروف الكلمات مختلف والحروف المستخدمة مختلفة كذلك، فكيف إذا يكون وضع هذه الآية من ناحية تساوي الكلمتين؟ جاءتني الإجابة بسرعة وذهبت إلى فهرس القرآن.

لقد كتب فهرس القرآن في سنة ألف وتسعمائة وخمس وأربعون، وكان هذا الفهرس خلاصة سنوات من العمل لرجل وتلاميذه الذين قاموا بتجميع كتاب به كل كلمة في القرآن، ومكان وجودها فعندما نبحث عن كلمة عيسى، نجدها في القرآن خمسًا وعشرين مرة، كذلك كلمة آدم نجدها مذكورة خمسًا وعشرين مرةً؛ فالذي أريد أن أوضحه أن عيسى وآدم عليهما السلام متماثلان في القرآن طبقًا للمعادلة التي في سورة آل عمران، وبناءً على هذه الفكرة قمت بالبحث في الفهرس لإيجاد كل ما هو مذكور تحت فكرة المعادلة، حيث يكون مثل شيء كمثل شيء آخر، وفي كل حالة وجدت أن هذه الفكرة تنجح، فعلى سبيل المثال يقول القرآن:

«فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» سورة الأعراف الآية (176)

حسنًا، عبارة "الذين كذبوا بآياتنا" نجدها في القرآن خمس مرات، كذلك كلمة "الكلب"، وهناك العديد من الأمثلة التي تسير على هذا المنوال.

بعد شهور من توصلي لهذا الأمر، اقترح صديق لي استمر في هذا البحث معي، أن هناك أماكن في القرآن ذكر فيها أن شيئًا ما ليس مثل شيء آخر، سرعان ماذكر لي هذا الأمر، قمنا بالبحث في الفهرس في عدة أماكن ذكر فيها أن شيئًا ليس مثل

شيء آخر، وقمنا بعدهم في القرآن، كانت المفاجأة أنّا وجدناهم غير متساويين، لكن شيئًا مثيراً للدهشة يحصل، فعلى سبيل المثال القرآن، يوضح أن التجارة ليست مثل الربا، وعندما نعد كل الكلمات نجد إحداهما ست مرات والأخرى سبعة، وهذا هو نفس الوضع في كل الحالات الأخرى.

عندما يكون هناك شيئًا ليس مثل شيء آخر، يكون عدد ذكرها بفارق واحد دومًا، فمثلا خمس لكلمة وأربع للأخرى، أو سبع لكلمة وثمانية للأخرى.

الطيب والخبيث

هناك آية مثيرة للدهشة تتحدث عن كلمتي الخبيث والطيب:

«قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» سورة المائدة الآية (100)

حسنًا، لقد بحثت في هاتين الكلمتين فوجدت أن كلا منهما تكرر سبع مرات في القرآن على الرغم أن الآية تقول أنهما لا يستويان، فكان من المفروض أنهما غير متساويين في العدد، لكن إذا نظرنا إلى ماتقوله الآية في سورة الأنفال:

«لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» سورة الأنفال الآية(37).

هنا نجد الحل لهذه المشكلة، فكما توصلنا مسبقًا إلى تساوي تكرار كل من الخبيث والطيب سبع مرات في القرآن، فطبقًا لمبدأ هذه الآية في سورة الأنفال أن الخبيث تم فصله من الطيب، وجعل الخبيث بعضه على بعض مجموعًا وهذا عدد الخبيث مساويًا للطيب لأنه تم فصلهما عن بعض.

تكرار الكلمات

هناك أمر آخر يحب منتقدي القرآن أن يستخدموه لإثبات عدم صحة القرآن، فالذي يظهر لتفكيرهم، أن مؤلف القرآن كان جاهلًا لأنه نصح المسلمين أن يتبعوا السنة القمرية بدلا من السنة الشمسية، النقاد يقولون أن مؤلف القرآن لم يكن على دراية بالفرق في السنين، بمعنى أنه إذا اتبع شخص الشهور القمرية يحدث فرق بالنقصان في قيمته أحد عشر يومًا في كل سنة.

لكن مؤلف القرآن كان على دراية تامة بالفرق بين طول السنة الشمسية والسنة القمرية يقول القرآن:

«وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا» سورة الكهف الآية (25)

هنا يذكر القرآن المدة وهي ثلاثمائة سنة، ثم يقول أنهم ازدادو تسع سنين، إذا قمنا بتحويل ثلاثمائة سنة شمسية إلى مكافئتها من السنين القمرية نجد أنها تساوي ثلاثمائة وتسع سنوات، كأن مؤلف القرآن يريد أن يبين لقارئه أنه على وعي تام بأن ثلاثمائة سنة شمسية تزاد تسعة إذا تم حسابها بالحساب القمري الذي هو أصلاً الأسلوب المتبع في القرآن.

دعونا نرجع ثانية إلى طريقتي في حساب تكرار الكلمات في القرآن، فنجد أن كلمة شهر تتكرر اثنتي عشر مرة، فهناك اثنا عشر شهرا في السنة. فإذا وجدنا كلمة شهر تتكرر اثنتي عشر مرة فكم نتوقع تكرار كلمة يوم؟ نجد أن الكلمة تتكرر في القرآن ثلاثمائة وخمس وستون مرة، في الواقع الأمر الذي دعاني إلى أن أهتم بالبحث عن تكرار كلمات شهر ويوم وهو الفارق مابين السنة الشمسية والسنة القمرية، حسنًا، منذ خمس وعشرين قرنًا، يعرف أن الموقع النسبي لالتقاء الشمس والقمر والأرض على خط واحد يحدث كل تسعة عشر سنة، واكتشف هذا الأمر عن طريق رجل يوناني اسمه ميتون (Meton)، وسميت هذه الواقعة بالدورة الميتونية (Metonic Cycle) بعدما علمت هذا الأمر بدأت أبحث في القرآن عن تكرار كلمة سنة فوجدتها تتكرر تسع عشر مرة.

التوازن المتكامل للكلمات

والآن ماهو الغرض من هذا التوازن المتكامل للكلمات في القرآن؟ بالنسبة لي، هذا التكامل في القرآن يرينا أن مؤلفه كان على دراية بالاختلاف ما بين استخدام الكلمات، وذكر الكلمات، وهي نقطة منطقية مهمة، والأهم من ذلك أنها دلالة على حفظ هذا الكتاب.

بعدما قمت بإلقاء محاضرة عن القرآن تعرضت فيها إلى بعض مما سبق، جاءني سؤال يقول: "كيف نعلم أنه مازال لدينا القرآن الأصلي؟ فربما ضاعت أجزاء منه أو أضيفت إليه أجزاء؟"، أجبته أننا قد قمنا بتغطية هذا الموضوع بشكل جيد، فتكامل التوازن بين الكلمات في القرآن تم التوصل إليه في عهد قريب جدًّا من جيلنا الحالي، فلو قام أحد بإضاعة جزء من القرآن أو إخفاء أو إضافة جزء إليه لما كان سيعرف أن لهذا الكتاب شفرة معينة وأن هذا التوازن المتكامل كان سيدمر تماماً.

يسهل في زمننا الحالي باستخدام أجهزة الكمبيوتر أن نقوم بتنظيم الكلمات بنمط مشابه لما ذكرنا سابقًا، فيمكن أن نكتب فكرة ما على هيئة جمل معينة، وباستخدام الكمبيوتر نقوم بعمل معادلة لوزن الكلمات من حيث الأعداد.

فإذا كان من الممكن عمل هذا في زمننا وكذلك إذن كان من الممكن عمل هذا الشيء منذ أربعة عشر قرنًا، وهو ماحدث بالفعل، فلماذا يتم فعل شيء كهذا، ويترك مختفيًا ولم يلفت له أي انتباه من قبل أول من رأوا هذا الكتاب؟ لماذا يترك مثل هذا الأمر على أمل من مؤلفه أن يقوم شخص ما بعد العديد من القرون أن يكتشفه ويفاجأ به؟ إنه رأي غير منطقي أن يفعل شخصٌ عاديٌ مثل هذا الفعل.

التفسير الأفضل

أخبرنا في القرآن أنه ما من سائل يأتي بسؤال إلا وتكون الإجابة عنه مفصلة، ويكون التفسير لسؤاله أفضل تفسير، يقول القرآن:

«وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً» سورة الفرقان الآية (33).

إذا نظرنا مرة ثانية إلى فهرس القرآن، لوجدنا أن كلمة "قالوا" مكررة ثلاثمائة واثنين وثلاثين مرة، فإذا نظرنا إلى كلمة" قل"، فمن الطبيعي أن نجدها مكررة ثلاثمائة واثنين وثلاثين مرة، وهو بالفعل ماهو موجود في القرآن.

مصدر القرآن

على مر القرون، اختلف المشككون في القرآن في طبيعة مصدره، ولم يتفق أحد منهم على الشخصية أو الشخصيات التي قامت بتأليفه، في دائرة المعارف الكاثوليكية تحت عنوان "القرآن"، تخبرنا أنه على مر القرون شكلت نظريات كثيرة تحاول وضع تصور حول مصادر القرآن، واليوم، وبعد كل هذا البحث، كان نهاية ما تم التوصل إليه أنه لا يوجد إنسان عاقل يمكن له أن يصدق أيًا من هذه النظريات؛ هذا يترك المشككين في صحة القرآن في بعض الحيرة، فكل النظريات التي اقتُرِحَت حتى الآن لتحديد مصادر القرآن غير مقبولة تمامًا بالنسبة لأي إنسان عاقل، وذلك وفقًا لدائرة المعارف الكاثوليكية. فمن أين إذن جاء هذا الكتاب؟

هؤلاء الذين لم يدرسوه ولم يفحصوه جيدًا، عادة مايصفونه بأنه مجموعة من الأمثال والحكم والأقوال التي استخدمها الإنسان على مر العصور، فقد أوحى لهم خيالهم أن هناك رجلًا أخذ يفكر على مدار اليوم في أقوال حكيمة ثم يقولها لمن حوله من الناس، فيقوم هؤلاء الناس بكتابة هذه الأقوال، وتجميعها في الكتاب الذي سمي بعد ذلك بالقرآن.

أما هؤلاء الذين يقرؤون القرآن، فلن يجدوه كما يصفه من يجهله؛ إن أي مبتدئ في الإسلام يعلم أن مجموع أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم يُعرف بالحديث، وقد جمعه ونقله مَن حوله، وهي مكتوبة على هيئة أقوال، أما المواضيع والمحتويات في القرآن مكتوبة على هيئة تعبير وتفسير، فعلى سبيل المثال في سورة يوسف، هي عبارة عن قصة كاملة بتفاصيل كثيرة عن جزء من حياة رجل واحد مكتوبة بصورة تعبيرية.

إن امتلاء القرآن بالمعلومات وعلو درجة تنظيمه، جعلت المشككين فيه يظنون استحالة القيام بشخص واحد بتأليفه، هذا الذي دفعهم إلى الظن أن القرآن ناتج تأليف محمد وصحابته، فافترضوا أنهم كانوا يجلسون معه ويقومون بتأليف القرآن، وأن مجلسًا من الرجال كان ينعقد بشكل منتظم، يتم جمع المعلومات فيه من مصادر مختلفة، ثم يبدؤون بتأليف شيء ويعطوه لهذا الرجل قائلين له: "اذهب إلى الناس غدًا، هذا هو الوحي الذي ستقوله"، بمعنى آخر، أن هذا كله عبارة عن غش تم تجميعه بواسطة مجموعة من الناس. لكن ما الذي نعلمه عن الغش؟ يذكرنا القرآن قائلاً:

«قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيد» سورة سبأ الآية (49)

معنى هذا الكلام، أن الباطل أو الغش لا يستطيع أن يكون مصدراً لشيء جديد، لأنه في حد ذاته غشٌ، وهذا يجعله هشًا غير قابل للتحمّل، وبطبيعة الحال ينهار هذا الشيء الباطل مع مرور الوقت، وهذا هو الاختلاف بين الصدق والغش، فالصدق دوما يتوافق مع الحقائق ويترابط معها على عكس الغش، فلو كان القرآن باطلا لما بقي حتى الآن.

تحدي

هناك آية أخرى تشكل تحدياً لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالقرآن، الآية تقول:

«أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْد غَيْر اللَّه لَوَجَدُوا فِيه اخْتِلَافًا كَثِيراً» سورة النساء الآية (82).

ها هو تحد للقارئ، إن كنت تعتقد أنك تملك تفسيراً لمصدر القرآن، ألقِ نظرة أخرى على هذا الكتاب، سوف تكتشف فيه بعض التناقضات التي سوف تدعم اعتقادك، تخيل لو كان هناك طالب في امتحان، وفي نهاية الامتحان كتب على ورقة الإجابة قبل أن يسلمها لأستاذه: "لايوجد أي أخطاء في ورقة امتحاني"، هل تعتقدون أن المدرس سوف يترك هذا الأمر يمر بسلام؟ في غالب الأمر أن المدرس لن ينام قبل أن يخرج أي أخطاء من الورقة بعد هذا التحدي، هذا المنطق ليس

منطقًا يتبعه البشر، إنهم لا يتحدون بعضهم البعض بهذه الطريقة، في الوقت الذي نجد فيه القرآن يتحدى قائلًا إن كان عندك فكرة أفضل عن مصدر هذا الكتاب فهذا كل ما عليك فعله، ابحث عن بعض المتناقضات والاختلافات فيه.

هناك بعض النقاد يفعلون هذا الأمر، يقولون أن القرآن يحتوي على متناقضات، وما أثار اهتمامي مقالةٌ قرأتها عن أن القرآن متناقض في مسألة الزواج، ففي موضع يقول لا تتزوجوا أكثر من واحدة إن لم تستطيعوا أن تعدلوا وفي موضع آخر يقول لا تتزوجوا أكثر من أربعة، إنهم يرون أن هذا تناقضًا، مع أن الأمر ببساطة، أنه في موضع يعلمنا شرط الزواج بأكثر من واحدة، وفي موضع آخر يعلمنا العدد الأقصى للزواج، فليس هناك أي تناقض.

يسارع النقاد بشكل عام في البحث عن أي شيء ليوجدوا له تفسيرًا، ومن ثم يستخدمونه كذريعة للهجوم، مبتعدين بذلك عن روح الموضوعية والحقيقة.

بالنسبة للنقاد الذين يهاجمون القرآن ويصرون على احتوائه لأخطاء، يجب حتى يتحقق نفي جزء ما من القرآن أن يستوفوا ثلاثة أمور، أولا، عدم كفاية الدليل، ثانيًا، أن الدليل قد يحتمل أكثر من معنى، ثالثا، أن يستحيل حدوث الدليل المذكور، فعندما يحاول أحد إظهار خطأ ما في آية قرآنية، يتحتم علينا أن نُظهِر له أن الدليل المذكور غير كاف لإظهار خطأ الآية، أو أن نُري الناقد أن الآية لها معنى آخر غير الذي ذكره، أو أن نُظهِر له أن هذه الآية لا تحتملُ المعنى الذي ذكره، فالأمر لن يخرج عن هذه النقاط الثلاثة.

نسب ما في القرآن إلى الشيطان

حدث معي في موقف أنني كنت أشرح بعض محتويات القرآن لرجل يعمل في الكنيسة، ولم يكن يعرف الكتاب الذي أتكلم عنه، جلس بجواري وكان الكتاب مقلوبًا، أخبرته عن الكتاب ومايحتويه، ثم قلت له أنه ليس الإنجيل، كان رده أن هذا الكتاب معجزة، قال: "نعم، من المستحيل أن يكون هذا الكتاب من

صنع الإنسان، لذلك يجب أن يكون مصدره الشيطان، لأن هذا الكتاب ليس الإنجيل".

يعلق القرآن على هذا الاقتراح الذي يفترض أن الشيطان هو مصدر هذه الكتابات فيقول:

«وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (210) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ(211)» سورة الشعراء.

كما نرى أن هذه الآية تقول أن هذه الكلمات لا تناسب الشيطان، أليس كذلك؟ هل هذه هي الطريقة التي يغوي بها الشيطان الناس؟ يقول لهم لاتعبدوا أحدًا إلا الله، ويصر على أن يصوموا، وأن يتصدقوا، هل هذه هي الطريقة التي يضل بها الشيطان الناس؟

قارن بين موقف رجل الكنيسة هذا، وموقف اليهود الذين عرفوا المسيح وعارضوه حتى النهاية، هناك واقعة في الإنجيل تذكر أن المسيح أحيا رجلًا من الموت بعد أن مر عليه أربعة أيام وهو ميت، هذا الرجل يدعى أليعازر، عندما خرج أليعازر من قبره حيا، ماذا فعل اليهود الذين رأوا هذا الأمر؟ هل قالوا على الفور أن هذا الرجل نبي وآمنوا به؟ كلا، يقول الإنجيل أن اليهود تشاوروا فيما بينهم وقالوا أن هذا الرجل الذي يصنع المعجزات سيجعل الجميع يؤمنون به سريعًا، ويجب أن يجدوا طريقة لقتله، فقاموا بنسب معجزاته للشيطان، وزعموا أنه أحيا ذلك الرجل بقوة الشيطان.

الذي يقرأ الواقعة الآن من إخواننا المسيحيين، يشعر بالأسف الشديد لهؤلاء اليهود الذين رأوا هذه الأدلة الواضحة أمام أعينهم، ومع ذلك نسبوا كل هذا للشيطان، ألا يبدو ذلك مماثلاً عندما نبين ما في القرآن، وعندما يبدو ما فيه صواباً، فيكون الرد أن هذا الكتاب جاء من عند الشيطان؟

خاتمة

يحترم القرآن كثيراً كل إنسان يفكر ويستخدم المنطق، بل ويشجع عليه، فنجد العديد من الآيات التي تأتي في هذا الإطار مثل:

«أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» سورة النساء (82)

«أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا» سورة محمد (24).

«إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(191)» سورة آل عمران

فلو كان القرآن عملا من عند غير الله، لما وجدنا الإصرار الشديد على الدعوة إلى التفكر واستخدام العقل، نلاحظ أن هذه الدعوة للكل سواسية وليست للبعض. إذن أن ندعي أن القرآن من تأليف محمد ليس إدعاءا منصفًا، لأن أي بشر عندما يريد أن يدعي النبوة، فإن أول ما سيطلبه من أتباعه هو إلغاء العقل، وعدم استخدامه، لأنه من المؤكد أن المنهج الذي سيطبقه منهجًا بشريًا يحتمل الصواب والخطأ؛ يجب أن نعلم أن الله قد أعطانا كلنا عقولًا، لكن طريقة تفكيرنا ليست كلها متشابهة، ذلك يرجع لاختلاف ظروف نشأتنا، تعليمنا وخبراتنا.

هذا يجعل دعوة الله لنا كل على حدى للتفكر، دعوة منطقية، لأن كلا منا عنده القدرة على أن يصل إلى نتائج مختلفة لنفس المسألة، إذا توافرت لديه الرغبة الجادة في الوصول إلى الحقيقة التي ينشدها؛ وكما ذكرت في أول البحث أن "رينيه ديكارت" كان من رواد استخدام المنطق والشك للوصول إلى وجود الله، أحب أن أذكر أن أول من عرف عنه استخدام نظرية المنطق والشك هو أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، كلنا يعلم كيف دعا قومه إلى التوصل لمعرفة الإله الواحد، فكان يدعوهم لاختيار آلهة مختلفة بغرض دفعهم للتفكر، حتى وصل

بهم إلى الإله الواحد الحق، فاستحق إبراهيم أن يكون مؤسس نظرية المنطق والشك الإبراهيمي.

في النهاية، أسأل كل غير المؤمنين بوجود الله، كما آمنتم بالعلم والأدلة العلمية، والتي قبلتم على أساسها نظرية التطور، ما هو الدليل على أصل الإنسان أنه كان قردًا؟ فنحن لم نر بأعيننا أي أدلة علمية على تحول القردة إلى بشر، حتى الحفريات لا تحتوي على حلقة الوصل بين المخلوقين؛ وإذا فرضنا جدلًا حدوث هذا التحول، لماذا لم يتحول كل القردة إلى بشر؟ لماذا لا يزال هناك قردة حولنا ولم يتحولوا مع أسلافهم؟ وإذا كان هناك البعض قابل للتطور دون الآخر، ما هي مواصفات القردة القابلة للتطور لبشر؟ ولماذا توقف التطور عند الإنسان منذ آلاف السنين؟ أليس من المنطقي عدم توقف التطور واستمراره لنصبح مخلوقات جديدة، أو على الأقل جزء منا؟ هذا ما أقترحه على الكثير من غير المؤمنين بنظرية الإله أن يشغلوا تفكيرهم فيه، بدلا من المعاناة في محاولة نفي الإله، أن يحاولوا إثبات نظريات التطور وغيرها؟ يجب التنويه على ضرورة النقاش الجاد واحترام أفكار ومعتقدات الجميع مهما كانت مختلفة، فذلك من سمات المجتمعات المتحضرة.

كذلك أحب أن أوجه رسالة إلى كل المؤمنين بالله عنوانها: "كيف تدعو الغير إلى الله".

الدعوة إلى سبيل الله واجبة على كل إنسان بغض النظر عن معتقده، لكن نقطة الفصل هنا هي كيفية الدعوة؟

بالنظر إلى التاريخ، نستطيع أن نلتمس المنهج العملي الذي اتبعه الأوائل من المسلمين وغيرهم ليوصلوا رسالتهم للغير، فنستطيع أن نفرق ما بين أن ندعو الغير أو أن ننتهك حريتهم وخصوصيتهم؛ نأخذ مثالاً من الحسن والحسين أحفاد رسول الله، عندما رأوا رجلًا يخطئ الوضوء، قاموا بالوضوء أمامه دون أن يشعروه بأي انتقاص، أو أن يخطئوه، أو حتى أن يتفوهوا بكلمة واحدة، فما كان إلا أن لاحظ الرجل، وأخذ قراره بنفسه ليصحح وضوءه، بل وشكرهم على ما تعلمه منهم.

مثال آخر، هو انتشار الإسلام في شرق آسيا بدون قطرة دماء أو جيوش، عندما رأى أهل آسيا أخلاق التجار المسلمين في أمانتهم والتزامهم، فقرروا أن يتبعوا مبادئهم حتى دخلوا في دين الله بدون غصب أو أمر.

بل وحتى الرجل اليهودي الذي جاور النبي وكان شديد الكره له يرمي القمامة على بيته، أسلم الرجل بدون أي ضغط أو حتى كلمة واحدة، فقط لأن الرسول قد زاره عندما مرض.

هذه هي الدعوة التي من الممكن قبولها، والتي تتسق مع طبيعة النفس البشرية التي لا تقبل أن تُكره على شيء، حتى الطفل الصغير لو أكره على أن يأكل أفضل شيء يحبه سيرفض، لأن الله قد أعطى كل إنسان عقلًا وإرادة مستقلة يحب أن يقرر مصيره بنفسه.

فمن فضلك إذا أردت أن تدعوَ أحدًا لأي شيء فابدأ بنفسك، فإذا رأى الناس ما يعجبهم فيك، تأكد أنهم سيتبعونك بدون أدنى جهد منك تجاههم.

أختم كلامي بمقولة نُسبت إلى الإمام الشافعي رحمه الله يقول: "قولي صواب يحتمل الخطأ، وقول غيري خطأ يحتمل الصواب"، فليس هناك مطلق أو مقدس إلا كلام الله ورسوله:

«ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (2)» سورة البقرة

«وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ(4) » سورة النجم.

أما ما دون ذلك فيؤخذ منه ويرد.

هذا العمل يُعدّ اجتهادًا مني، من فهمي المحدود بهدف خدمة الآلاف من البشر الذين فقدوا مسارهم الإيماني، وذلك بعد سنوات من المناقشات والحوارات التي أتت بنتائج إيجابية، والله من وراء القصد.

والحمد لله رب العالمين.

الفهرس

مقدمة _____ ٥
الفصل الأول _____ ٩
الفصل الثاني _____ ٣٣
الفصل الثالث _____ ٤٣
الفصل الرابع _____ ٦٠

دار ضَـادّ للنشْر والتوزيع والترجمة
Dar DAAD for publication, distribution and translation